مجموعة قصصية

عبّاس سليمان

بنت الحرام

نسخة الكترونية

تصميم الغلاف الإلكتروني: صالح مبروكي 2021

salehymabrouki@gmail.com

عبّـــاس سليمــان

بنت الحرام

قصص

تصميم الغلاف الإلكتروني: صالح مبروكي 2021

salehymabrouki@gmail.com

العنوان: بنت الحرام.

المؤلّف: عبّاس سليمان.

الجنس الأدبي : قصص.

النّاشر: الثّقافيّة للنّشر .

الإيداع القانوني :

الطّبعة : الأولى

بنت الحرام

في ذلك الصّباح عندما وصلت إلى المحطّة كان المسافرون باتّجاه العاصمة يتزاحمون أمام الحافلة صاعدين واحدا واحدا إلى داخلها.

انحشرت وسط الكوكبة واستطعت أن أشقّ لي طريقا إلى العتبة وأن أتسلّق الدُّرْجين وأصل إلى مقعد قريب من السّائق. جاءت بعدي بدقائق عجوز ارتمت قربي متأفّفة ثمّ حيّتني بامتعاض وأخرجت مسبحتها وبدأت تتمتم.

امتلأت المقاعد بالرّكاب فأغلقت الحافلة أبوابها وتوكّلت على الله وبدأت تسلك طريقها الذي اعتادت أن تسلكه كلّ فجر.

أضواء الطّريق ما تـزال سـاهرة والظّلمـة خـارج الحافلة أخذت تنداح شـيئا فشـيئا. انتظـرت حتّـى وصل إليّ قاطع التّذاكر لأريه تذكرتي ثـمّ قـرّرت أن أغفـو وأواصـل نـومي ريثمـا يطلـع النّهـار وتقطـع الحافلة من طريقها شوطا.

قلتُ لي :

"لأقنع النّوم بأن يعود إليّ، لا بدّ أن أشـغل ذهنـي بـأمر أفكّـر فيـه. فكّـرت وفكّـرت وفكّـرت، قلـت... أستعيد شريط أحداث الأمس ... أو بـرامج التّلفـزة التي شاهدتها البارحة ... أو أقرأ لنفسي عن ظهر قلب نصّ المقـال الـذي أرسـلته منـذ يـومين إلـى إحدى الجرائد الثّقافيّة ... أو ...أو ...أو ..."

والحقيقة أنّي لم أقتنع بكلّ ذلك واستقرّ رأيـي أخيرا علـى التّفكيـر فـي مـا أعتـزم القيـام بـه إثـر وصولي إلى العاصمة.

"ستصل حافلتك بعد منتصف النّهار بقليل.

اِلتقط حقيبتك الخفيفة وتوجّه رأسا إلى مطعم محترم... أسكت جوعك جيّدا ثمّ اتّخذ لك مقعدا في إحدى مقاهي شارع بورقيبة. سيراك النّادل تجلس وسيسرع إليك متى تذكّرك بكأس شايك الأخضر. ستكون السّاعة وقتها في حدود الثّانية بعد الزّوال... اذهب تجوّل قليلا في بعض المكتبات ودكاكين الملابس القريبة واقتل الوقت قطرة قطرة حتّى تقترب السّاعة الثّالثة ثمّ توجّه مباشرة إلى مقرّ "دار الكتاب"، ستجد في انتظارك أصدقاءك الذين دعوتهم بالهاتف وبالفايسبوك إلى حضور حفل التّكريم الذي ينتظم على شرفك بمناسبة صدور روايتك الأخيرة وسيكون حاضرا مدير الدّار وأعضاء الهيئة وصحفيّون وكُتّاب وقرّاء وفضوليّون وبعض أقاربك القاطنين بالعاصمة المهتمّين بالثّقافة والمؤمنين بِـ:"انْصر أخاك ظالما أو مظلوما"...

ستنطلق فعاليّات الأمسية وسيقدّمك إلى الحضور رئيس الجلسة وسيتحدّث عمّا كتبت وعمّا

كُتب حولك وعـن مشـاركاتك الأدبيّـة داخـل الـبلاد وخارجها وعن الجوائز التي نلتها والتّكريمات التـي حظيت بها.

سيصفّق طويلا الحاضـرون وسـتحني أنـت رأسـك خجلا وتشكر متمتما السّيد الرّئيس الذي سيحيل الكلمة إلى من سيقدّم روايتك الجديدة.

لا شكّ أنّ ذلـك المقـدّم سـيتمهّل قلـيلا عنـد العنوان والصّورة قبل أن يمرّ إلى قراءة سطور أو ما بين سطور رواية "بنـت الحـرام" متوقّفـا مـن حـين إلى حين لقراءة شذرات منها..."

باب الحافلة ينفتح وجلبة عند المدرج.

مسافرون ينزلون وتنزل معهم العجوز جارتك.

مسـافرون يصـعدون وتصـعد معهـم فتـاة أنيقـة خشـيتَ لمّـا انتبهـتَ إلـى طولهـا أن يطـأ رأسـها سقف الحافلة.

صوت باب الحافلة ينغلق من جديد.

تلتفت إليك جارتك الجديدة، تحيّيك بأدب وتُخرج من حقيبتها بسكويتا وعصيرا... وتبدأ في تناول إفطارها.

تعود الحافلة إلى التهام الطّريق...

"سيستقرّ لدى من سينصت من الحاضرين بانتباه إلى مداخلة ذلك الأستاذ أنّ "بنت الحرام " رواية فتاة حوّلت دارها الواقعة في حيّ شعبيّ إلى ماخور يؤمّه رجال الحيّ وشبّانه وطلاّب اللّذّة من الأحياء المجاورة. وسيعرف من لم يقرأ الرّواية من الحاضرين أنّ الاسم الحقيقيّ لـ"بنت الحرام" هو "فاتحة بنت قمرة" وأنّ "فاتحة" هذه فقدت أباها في العاشرة وأمّها بعده بسبع سنوات، ولم يؤوِها من أهلها أحد خوفا من فتنتها... فباشرت وحدها حياتها وانقطعت عن الدّراسة وعوّلت على جسدها تعيش منه وتفسد به ذكور المدينة.

وسيلاقون في ثنايا الرّواية مغامرات مفصّلة وردود أفعال مختلفة ومداهمات متعدّدة وسيعيشون اللذّة مع طلاّبها من "فاتحة" والغيرة

والغضب مع نساء المدينة والغيظ مع رجال الأمن الذين تنجح "فاتحة " دوما في أن تراوغهم أو تغريهم.

وستحال إليك الكلمة ولكنّك لن تتكلّم طويلا.

ستشكر منظّمي أمسية تكريمك.

ورئيس الجلسة الذي قدّمك.

والأستاذ الذي خصّ "بنت الحرام" بقراءة شافية.

والضّيوف الذين لبّوا الدّعوة.

والصّحفيّين الذين اهتمّوا بالحدث.

وستهدي نسخا من روايتك وعليها إمضاؤك وكلمات لطيفة."

....

النّهار الآن يقترب نحو ضحاه.

والحافلة شقّت أكثر من نصف الطّريق.

امتدّت يدك إلى حقيبتك تُخرج منها "بنت الحرام".

أعدْ قراءتها... قلتَ لك... وقفْ على تفاصيلها، تحسّبا لأيّ سؤال قد تفاجأ به أثناء نقاش الرّواية هذا المساء.

وضعت نظّارتيك على عينيك والكتاب بين يديك وبدأت تقرأ ما كنت كتبت.
تحرّك الفضول في جليستك فالتفتت إليك.
نظرت إلى عينيك ونظّارتيك وتحوّلت عيناها منهما إلى كتابك الذي بين يديك.
قرأت عنوانه وشهقت شهقة اهتزّ لها من التقطتها أذناه من ركّاب الحافلة... ارتمت على الرّواية تنتزعها منك ثمّ ارتمت عليك وأنشبت أظافرها في رقبتك وبدأت تصيح.

نزعتَ بصعوبة نظّارتيك وأعدتهما إلى جيبك وأنت مشدوه تماما.

- هو أنت إذًا ؟

لم تفهم سؤالها ولا المغزى منه ولكنّ الخجل حمّرك وعرّقك بمجرّد أن التفّ حولكما نفر من ركّاب الحافلة .

- هو أنت إذًا ؟

أعـادت سـؤالها بصـوت أعنـف وبتـوتّر أشـدّ ثـمّ أمسـكت كتابـك وشـطرته نصـفين وأخـذت تمـزّق بأصابعها وأسـنانها أوراقه وتدوس على ما يقع منه بحذائها دون أن تتوقّف عن سـبّك وشـتمك ونعتـك بنعـوت بذيئـة جـدّا ولعـن أبيـك وأمّـك ومـن علّمـك القراءة والكتابة ومـن طبـع لـك الكتـاب ومـن وزّعـه ومن قرأه أو حتّى قرأ منه سطرا.

صـمتُك الـذي لـم تسـتطع أن تخـرج منـه زاد حرجـك أمـام نفسـك وأمـام ركّـاب الحافلـة الـذين تحلّقوا حولك وحولها.

قال الرّاكب الـذي أمامـك وكـان شـيخا يبـدو عليـه الوقار :

- صـلّوا علـى النّبـي... مـاذا جـرى بالضّـبط بينكما ؟
- لا شـيء، سـارعت بـالقول، لا أعـرف هـذه الفتاة ولم ألقها يوما في حياتي ولم يصـدر منّي منذ ركبت إلى جانبي ما يجعلها تثور عليّ وتسيء معي الأدب.

- إذا كنت لا تعرفني، فلماذا كتبت عنّي كلّ هذا الكتاب ؟ لماذا فضحتني وعرّيتني ونشرت غسيـــــــــــــلي؟

أيّ أدب تتحدّث عنه وأنت تتطفّل على بنات النّاس وتقصّ على القرّاء تفاصيلهنّ الخاصّة وتُخرج للعالم سيرهنّ موثّقة في كتاب؟

لم يفهم الحاضرون من كلامها شيئا ولكنّ الذين قد تبادر إلى أذهانهم أنّها ثارت في وجهك لتحرّشك بها وإساءة الأدب معها تخلّوا عن شكوكهم.

- أنا لا أعرفك حتّى أكتب عنك.

أعادت التقاط الورق المتناثر ... بحثت عن الغلاف وتصفّحت أوراقا أخرى وهي تغلي غليا ثمّ واجهتك :

- ما اسم كتابك ؟

قلت بخجل :

- "بنت الحرام".

- هذه واحدة... هو الاسم الذي يطلقه عليّ سكّان مدينتي. وما اسم "بنت الحرام" هذه ؟

تلعثمتَ فأمسكتْ رقبتك وصاحت فيك :

- قلْ... قلْ... وإلاّ خنقتك.

قلت مختنقا :

- "فااتحة ببببنت قمقمقمرة ".

أدخلت يدها في حقيبتها اليدويّة ومدّت بطاقة هويّتها ووضعتها بين عينييك ثمّ أمام أعين الرّكاب وقالت لك :

- اقرأ.

قرأت :

- "فاتحة بنت قمرة."

- كم عمر فاتحة ؟

خفت أن تعيد إمساك رقبتك فأجبت :

- خمسة وعشرون عاما.

وضعت اصبعها على تاريخ ميلادها وقالت :

- انظر...تثبّت جيّدا من هذا التّاريخ الذي أمامك .

قرأت تاريخ الميلاد المذكور على البطاقة فاستنتجت أنّ عمر الفتاة خمس وعشرون عاما ...

- ومتى فقدت "فاتحة" أباها ؟ في سنّ العاشرة ، أليس كذلك ؟
- هو كذلك.
- وأمّها ؟ بعده بسبع سنين ؟
- أجل ، بعده بسبع سنين.
- طيّب ، وكيف واصلت حياتها بعد ذلك ؟
- انقطعت عن الدّراسة و....
- وأصبحت تأكل من لحمها ؟ قُلْها. لماذا وجمت ؟ وداري التى ورثتها عن أبويّ ؟
- حوّلتها إلى ماخور.
- وماذا فعلت بذكور المدينة ؟
- .....

أمسكت وجهك بين يديها... أنشبت في وجنتيك وفي عينيك أظافرها، ركلت وسطك بركبتها وبدأت تضرب رأسك وهي تقول :

- هذا رأس مريض، لن يصلح إلاّ بالكيّ أو الضّرب أو الحرق" .

غطّى الدّم مقعديكما ونجح نفر من الرّكاب في إبعادها عنك ثمّ شرعوا يصيحون مطالبين السّائق بالتّوقّف .

سمعته يقول :

-"لن أتوقّف إلاّ أمام مركز أمن".

تظاهرت "بنت الحرام" أنّها كفّت عنك ثمّ انقضّت عليك من جديد، ضغطت على رقبتك وهي تقول :

- يجب أن أفصل هذا الرّأس عن هذا الجسد.

ارتخيت حتّى هويت على طرف المقعد. تدخّل الرّكاب مرّة أخرى وأنقذوك. وجاء رجال أمن فقيّدوها واقتادوها خارجا وحملوك وأنت في حالة إغماء شديد ثمّ جاءت سيّارة إسعاف تنقلك إلى المستشفى.

من قال إنّ الموت لا يراه أحد ؟
أنت رأيته.
رأيته بعينيك.
ولم تجرؤ على أن تترجّاه أن يتركك أو يؤخّرك.
لعلّك تمنّيت وقتها ألاّ يتردّد في أخذك إليه.
أفقت بعد أربع وعشرين ساعة.
فحصك طبيب العناية المركّزة وطمأنك وأمر بتحويلك إلى قسم الرّجال.
على المنضدة الملاصقة لسريرك لمحت جريدتين خمّنت أنّ المريض الذي غادر قبلك تركهما عمدا أو سهوا. جذبتهما وفتحت ركن "الورقات الثّقافيّة" فألفيت صفحة تعلوها صورتك وصورة "بنت الحرام" وتحتهما غلاف الرّواية ومقال مفصّل يحكي ما جرى بينكما في الحافلة وما فعله الرّكّاب ورجال الأمن وأعوان المستشفى لإنقاذك ويقدّم تأويلات عديدة للحادثة وتنبّؤات كثيرة بسيناريوهات المحاكمة القادمة.

salehymabrouki@gmail.com

ذراع الكلب

شــعرت زوجتــه بكثــرة تململــه فــي الفــراش وبتقلّبــه مــرارا يمينــا ويســارا حتّــى بــدا لهــا أنّــه يتعمّــد أن يلفــت انتباههــا إلــى وطــأة الأرق والقلق عليه.

بصعوبة، فتحت عينيها وسألته :

- مـا بـك ؟ مـا الـذي أطـار عنـك النّـوم اللّيلـة ؟

ردّ بصوت مختنق :

- لا شـــيء... لا شـــيء... نـامي... نـامي... مجرّد أرق عاديّ.

عـادت زوجتـه إلـى نومهـا وظـلّ هـو يحـدّق بعينيه في فانوس الإضاءة الأزرق الخافت.

لـم يكـن اللّيـل قـد تقـدّم كثيـرا ولـم تكـن السّـاعة قـد جـاوزت العاشـرة إلاّ قلـيلا وصـخب الشّارع ما زال يصل إلى أذنيه عبر النّوافذ.

هدير سيّارات ودرّاجات ناريّة.

صـياح شـبّان عائـدون مـن المقهـى القريـب إلـى ديارهم.

مـواء قطـط تتجـوّل بـين الحاويـات أو تبحـث لهـا عن ملاجئ تقضي فيها ما بقي من اللّيل.

قـرّر أن يتوقّـف عـن تقلّبـه وعـن تحريـك أطرافـه وأن يتنهّـد صـامتا حتّـى لا تعـود زوجتـه إلى الاستيقاظ ولا تعيد عليه نفس السّؤال.

ظـلّ هكـذا ...يـداه مسـبلتان وسـاقاه ممـدودتان وعينـاه تجوبـان فضـاء الغرفـة ثـمّ

تعـودان فتحطّـان علـى الفـانوس ذي الضّـوء الأزرق الخافت ...

تسـلّلت يـده فـي اتّجـاه المنضـدة الملاصـقة للسّـرير وجـذبت الهـاتف الجـوّال ووضـعته فـي صـمت أمـام عينيـه ليقـرأ السّـاعة : العاشـرة والرّبـع ...مـازال بإمكانـه أن يـنهض ليصـلح مـا أفسـده بغضـبه اليـوم ...مـازال بإمكانـه أن يتـرك فراشـه ويلـفّ بدنـه فـي برنسـه أو معطفـه ويغـادر البيـت ... لـن يكلّفـه كـلّ ذلـك غيـر ربـع سـاعة يكـون إثـره فـي فراشـه مـن جديـد ليـنعم وقتهـا بالـدّفء بعـد أن يتركـه الأرق وسـينام سعيدا.

لن يحول دونه والخروج البردُ.

وسـتكتفي زوجتـه إن هـي انتبهـت إلـى خروجـه بسـؤاله عـن مقصـده ثـمّ سـتلوذ بالصّمت وبالترقّـب... ولـن يقـول لـه جـاره الطّيـب "صالح ":

- عـد مـن حيـث أتيـت فلـن أخاطبـك ولـن أسمعك بعد اليوم.

صديقيْن كانا.

آواهمـا حـيّ "الأنـس" هـذا منـذ أكثـر مـن عقـد من الزّمن.

تبـادلا الزّيـارات والتّهـاني والهـدايا وتقاسـما الشّـاي والحـديث والمسـرّات والأخبـار وأطرافـا من النّهار ومن سهر اللّيالي.

لم ينغّص عشرتهما طارئ ما.

ولم يحدث أن حصل بينهما ما يفسدها.

كيـف - اليـوم - خـرج عـن طـوره دون موجـب وتجـرّأ علـى جـاره الطّيـب "صـالح" فأشـبعه سـبآ وبذاءة وهمّ به ؟

كيـف - اليـوم - خـرج عـن أدبـه وانسـاق وراء غضـبه وخـرق مـا بينـه وبـين جـاره مـن سـيرة حسـنة عمرهـا عشـر سـنين وقـال لـه مـا لا يقولـه السّـكارى ولا يخـرج مـن أفـواه المجـانين علـى مسـمع ومـرأى مـن الجيـران الـذين بهتـوا

ممّـا سـمعوا وتأسّـفوا علـى صـرح الصّـداقة الذي انهار ؟

كيـف - اليـوم - لـم يقبـل اعتـذار جـاره السّـيد "صـالح" الـذي كـرّره مـرارا بالصّـمت وبـالكلام وبالتّقبيـل وبالتّربيـت علـى الكتفـين وبالابتسـام وبالخجل ؟

كيـف - اليـوم - سـمح لنفسـه أن يقـف لجـاره الـذي لـم يـؤذه يومـا موقـف العـدوّ الـذي يكنّ إرثا من الحقد والشّحناء ؟

كيـف – اليـوم - فعـل كـلّ ذلـك مـن أجـل .... كلب ؟

كـان علـى أهبـة طـيّ جريدتـه بعـد أن أتـى على كلّ ما يستحقّ القراءة فيها ...

اكتفـى مـن الورقـات السّياسـيّة بمطالعـة العنـاوين ...

ومـرّ علـى بعـض أخبـار الثّقافـة وبعـض أخبـار المجتمع ...

ثمّ شرع في قراءة حظّه :

برج الميزان : شريكك ينتظر أن تكون أكثر حميميّة معه.

مبلغ ماليّ في الطّريق إليك.

احذر أن تفقد شخصا مهمّا.

ثمّ سمع ناقوس الباب يزقزق.

تـرك الجريـدة وهـبّ واقفـا وبداخلـه شـعور مـن سـيجد وراء البـاب مـن يمـدّ إليـه مبلغـا مـن المـال أو مـن ينهـي إليـه خبـر وفـاة شـخص عزيز.

أدار القفـل فـألفى جـاره لـدى البـاب وبـين ذراعيـه كلبـه وعلـى وجهـه ابتسـامة خجـل وعلى شفتيه كلام يرتعش.

- الله غالـب ... اعـذرني كثيـرا سـي" سـميح" ...كنـت بصـدد إدخـال سـيّارتي إلـى المسـتودع ولـم أتفطّـن إلـى كلبـك الطّيّـب مختبئـا تحـت العجلـة اليمنـى إلاّ بعـد أن صـاحت زوجتـي وولولـت "حـذار ... حذار" .

نزلـت مسـرعا والتقطتـه وقبّلتـه وفحصـته فألفيـت ذراعـه تتـدلّى ...دفـع الله مـا كـان أعظم.

قلـــت لكـــم إنّ أصـــل الحكايـــة كلـــب... والحقيقة أنّ أصل الحكاية ... ذراع كلب.

لـــم يرفـــع الجـــار صـــوته ولا لـــوّح بيديـــه ولا ســـكت عـــن الاعتـــذار وطلـــب الصّـــفح وإبـــداء الاســتعداد لعـلاج الكلـب والاهتمـام بـه إلـى أن تعود ذراعه إلى مكانها وتعود إليه صحّته.

ولـم يفلـح الجيـران رغـم كـلّ مـا بـذلوه فـي تخفيـف هيجـان صـاحب الكلـب وفـي التّخفيـف مـن تـوتّره وفـي تلطيـف كلامـه الجـارح جـدّا وفـي حملـه علـى قبـول الاعتـذار وفـي إقناعـه بـأنّ جـاره أهـمّ مـن الكلـب وبأنّـه لا رادّ لقضـاء الله فـي العبـاد وفـي الكـلاب وبـأنّ جـاره لـم يفعل ما فعل عامدا ولا متعمّدا ولا شامتا.

أعـادت إليـه ذاكرتـه الأحـداث مـن لحظـة أن هـبّ لفـتح البـاب إلـى حـين تـدخّل الجيـران بـالقوّة لإدخالـه إلـى بيتـه درءا لمزيـد الـبلاء وتهريـب جـاره الطّيّـب إلـى خـارج الحـيّ ريثمـا ينطفـئ الغضـب وتخمـد نيرانـه ويعـود الهـدوء مـرورا بكـلّ الكـلام الـذي قـال وبهمّـه بصـاحبه يريـد تعنيفـه رجوعـا إلـى لحظـات فتحـه الجريـدة وصولا إلى هذا الأرق الذي يلمّ به ...

- الآن أذهـب إليـه ...أطـرق بابـه.. أناديـه ولـن أقـول لـه شـيئا ...سـآخذه بـين ذراعيّ وسيكفيني ذلك عناء أيّ كلام.

سـأوقظ زوجتـي لأصـطحبها عـلّ حيـاءه منهـا إذ يراهـا يضـطرّه إلـى قبـول اعتـذاري دون تـردّد ودون عتـاب ... أو ... سأسـتعين بصـديق ، واحـد مـن الجيـران يصـطحبني ويشـدّ أزري ويستسـمح لـي جـاري الطّيّـب "صـالح" ... هـو ربـع سـاعة أو أقـلّ أصـلح خلالـه مـا أفسـدته بتبجيلـي

كلبي على صاحبي وأعود إثره إلى فراشي مطمئنّا.

هو الآن في حيرة لا يدري أيّ السّبل الثّلاثة يختار... ولكنّه سعيد لأنّه أيقن أنّه كان فجّا غليظا وأنْ ليس أمامه غير الاعتذار سبيلا لإعادة صرح الصّداقة شامخا كما كان طيلة عقد من الزّمن.

هو الآن سعيد لأنّ تفكيره ابتعد عن الكلب وذراعه المكسورة وتعلّق بجاره وعشرته الطّيّبة.

امتدّت يده الى الجوّال تضغط على زرّ فيه لتقرأ على شاشته التّوقيت ...الحادية عشر وخمس وثلاثون دقيقة... مازال بإمكانه أن ينهض ويتدثّر ويخرج للقاء جاره والاعتذار إليه وتقبيله وحمله على أن ينسى ما حدث اليوم... مازال بإمكانه أن يوقظ زوجته ويسير

وراءهـا إلـى بيـت الجيـران ومـازال بإمكانـه أن يسـتعين بواحـد مـن كبـار الحـيّ ليرافقـه فـي مهمّتـه التـي اقتنـع تمامـا أنّـه لا بـدّ منهـا ...مـازال كـلّ ذلـك ممكنـا ... هـمَّ بـالنّهوض ولكـنّ فكـرة أخـرى نهضـت فيـه فـي اللّحظـة ذاتهـا التـي كـان سـيغادر فيهـا الفـراش : مـاذا لـو انتظـر صـباح الغـد ليقـدّم لجـاره اعتذاراتـه ؟ لـم يعـد يفصـله عـن النّهـار الجديـد غيـر سـاعات قليلة ولـن تطيـر الـدّنيا إن هـو أجّـل طلـب الصّـفح إلـى الصّـباح وقـد يكـون الصّـباح أنسـب لكـلّ ذلـك وقـد لا يكـون الوقـت مناسـبا لطـرق بـاب الجيـران فـي هـذا اللّيـل البـارد. فليـنم الآن هادئـا أو كالهـادئ وليـنعم بمـا اسـتقرّ عليـه تخمينـه وليسـعد بهـدوء غضـبه وباقتناعـه أنّ الكلـب كلب والصّديق صديق.

لينم هادئا الآن.

وغدا يوم جديد.

وغـدا لـن يفعـل شـيئا بعـد اسـتيقاظه قبـل أن يرتمي في أحضان صديقه.

لن يتناول إفطاره .

لن يبكّر إلى العمل.

ولن يتفقّد الكلب.

ولن ينتظر رأي زوجته.

ولن يستعين بأيّ كان...

فلديه من الخجل ما يجعله قويّا.

سكت الرّيح.

وأطبـــق الصّـــمت علـــى الطّرقـــات والأنهـــج المجاورة.

ولم يعد أحد يسمع مواء القطط وعراكها.

وتتالـــت علـــى الـــرّؤوس أحـــلام وهـــواجس وكوابيس.

ثـمّ بـدأ الصـباح يطـلّ والضّـوء ينتشـر والحركـة تدبّ والدّنيا الراقدة تنهض من جديد.

لكزتــه زوجتــه أن انهــض اســتعدادا لوقــت العمل فردّ عليها مغمغما:

- دعينـي أنـام قلـيلا فقـد لا أذهـب للمكتـب اليوم.

انتشــت الزّوجــة لقــراره فعــادت تــنكمش تحــت الأغطية باحثة عن فسحة نوم إضافيّة.
أخــذتهما معــا إغفــاءة أفاقــا منهــا فــي حــدود السّــاعة الثّامنــة علــى وقــع جلبــة وضوضــاء...معا هبّــا يفتحــان النّوافــذ ويطــلاّن علــى ســـاحة الحــيّ : الجيــران متجمّعــون متجهّمــون يتبــادلون كلامـــا حزينـــا مقتضـــبا أمـــام دار "ســـي صـــالح"...تقدّم "ســـي ســـميح" فـــي اتّجـــاه الجمــع الملتــفّ حــول دار جــاره فســمع صــوت بكــاء قــادم مــن جــوف الــدّار ثــمّ بــدأ يغطّــي علــى البكــاء صــوت مقــرئ يرتّــل فــي أنــاة آيــات مــن القــرآن ...تقــدّم "ســميح" أكثــر... ســأل بإشــارة مــن يــده وبكــلام مخــتلج عمّــا حــدث فلــم يهــتمّ

لســؤاله أحــد... حــاول أن يــدلف إلــى الــدّاخل فامتــدّت لمنعــه مــن التّقــدّم أذرع غليظــة ... انتحـى ركنـا واتّكـأ دافنـا بـين يديـه وجهـه متابعـا مـن بعيـد توافـد الخلـق علـى دار المرحـوم وبـين عينيــه صــورته مختلجــا يطلــب الصّــفح وصــوته مضطربا يعد بمداواة ذراع الكلب.

salehymabrouki@gmail.com

لن أعيش بعده.

- البركة فيك
- عظّم الله أجرك ورزقك الصّبر الجميل.
- الله يرحمو... كان طيّبا ولم نسمع يوما من يذكره بسوء أو يشتكي منه.

كنت أتلقّى التّعازي وأستمع إلى أدعية الرّحمة محرّكة في صمت شفتيّ بما يفهم منه الملتفّون حولي:

- جعله الله فداء لكم ولا أرانا ولا أراكم من بعده سوءا في حبيب أو قريب.

ثمّ أعود إلى الانتحاب.

ورائي كانت نسوة توشوش :

- مسكينة، كيف ستعيش بعده ؟
- الله يصبّرها، مصيبتها فيه كبيرة.
- ستشقى بفقدانه زمنا ولكنّها سوف تنساه وتعود إلى حياتها كأنّ شيئا لم يكن.
- أجل، لن يمرّ وقت طويل قبل أن تتحوّل إلى ملكيّة واحد آخر وتعود إلى التّجوال في طرقات المدينة والانتصاب بمفترقاتها وعرض أكداس البرتقال والتّفاح والموز والرّمان أمام عيون المارّة.
- البركة فيك.
- دعيك من هذا الانتحاب الذي لن يفيد المرحوم في شيء وادعي له بالرّحمة والغفران.

تـوالى علـى التقـاط صـور لـي مصـوّرون جـاؤوا مـن كـلّ فجـاج العـالم... وتهافـت علـى التقـاط مشـاهد بجـواري صـحفيّون ومثقّفـون ورجـال أدب ورجـال سياسـة وجمـع غفيـر مـن أهـالي المدينـة...كانوا يقفـون أمـام العدسـات وأيـديهم علـى كتفـي أو علـى أحـد ذراعـيّ وكنـت واقفـة في جمود.

صديقين كنّـا.

حبيبن كنّـا.

لو أنّ مرضـا أصـابه فاعتـلّ ثـمّ بـدأ يسـير بـبطء نحـو المـوت لكـان اسـتقرّ فـي يقينـي أنّـه مغـادر لا محالة.

لـو كـان تخلّـى عنّـي قبـل هـذا الرّحيـل الفجئـيّ بـزمن لكنـت نسـيته ولكانـت مسـاحة الألم فيّ الآن أقلّ انتشارا.

كنّا معا.

معــا نتجــوّل كــلّ يــوم ونجــوب الشّــوارع وننتصــب بالمفترقــات نكســب رزقنــا ونعــود أوّل اللّيل لنهمد وننام.

عنــدما اقتــرح علــيّ الارتبــاط منــذ أربــع ســنوات خَلَــتْ لــم أكــن أُكــنّ لــه أيّ شــعور... كنــت أراه شــابّا لا يختلــف عــن أيّ واحــد مــن شــباب المدينــة ... فكّـرت وفكّـرت وفكّـرت ... ثـمّ أرســلت مــن ينبئــه بمــوافقتي ...وبــدأت عشــرتنا ... وبــدأت أحبّــه ...ثــمّ عشــقته ... وأصــبح كــلّ حيــاتي ... وأصــبحتُ دنيــاه ... وأصــبحنا نكمّــل بعضنا بعضا.

سمعت أمّه يوما توصيه بي :

- ارفــق بهــا كثيــرا ...لا أظــنّ الــدّنيا أهــدتك خيرا منها.

وسمعته يقول لها:

- اطمئنّي ... هي في عينيّ.
- البركة فيك.
- الله يصبّرك والله يرحمو.

أهُـمّ بـالكلام فـأجهش بالعويـل ويحتـدّ فـي صـدري الغـيظ وتـزداد الـدّنيا اسـودادا أمـام عينيّ.

وأيقـن بعـض أفـراد العائلـة ونفـر مـن المقـرّبين أنّ حـالتي لا تسـمح لـي بالسّـير وراء الجنـازة فرابطـوا حـذوي والتفّـوا حـولي يخفّفـون عنّـي كارثـة ترمّلـي الفجئـيّ وحرقـة عجـزي عـن تشييع رفيق دربي إلى مثواه البعيد.

- سـاعدوني علـى تتبّعـه... سـيخفّف أدائـي صـلاة الجنـازة مـع المصـلّين وبسـطي ذراعـيّ لقـراءة الفاتحـة وتـأميني علـى الأدعيـة مـن حزنـي عليـه وسيجعلني أوقن أنّه مات فعلا.
- لـن نغـامر ونشـقّ بـك فـي هـذا البـرد الثّنايـا إلـى المقبـرة البعيـدة وأنـت علـى ما أنت عليه من هزال ومن ضنك.

زاد اعتراضـهم علـى رغبتـي مـن ألمـي ولكنّـي لـذت بالصّـمت وبالصّـبر وظللـت سـاهمة

بينهم أنصت إليهم يجترّون حكاية اندلاع الخصومة بينه وبين تلك الموظّفة وحادثة احتراقه وما بدا يجري بعدها ويعدّدون مناقبه ويتفاءلون لي بمستقبل ورديّ بعد ترمّلي وله بحياة زاهية بعد استشهاده.

وغاظني بعد ذلك كثيرا ألاّ أحد احترم حزني و ألاّ أحد قدّر حجم ما أصابني من همّ.

لا أحد قال إنّ الكارثة التي حلّت أكبر من أن تطاق ولا أحد قال دعوها تعيش حزنها وتقتنع بترمّلها.

بعد يوم واحد من تشييع رفيقي إلى مثواه الأخير توافد كثيرون يعرضون المبالغ الطّائلة لشرائي ...

ورغم أنّهم رأوني يوم الدّفن جرداء خالية من كلّ زينة سوداء من الحزن فإنّهم جاؤوا يتنافسون في المهور وفي العطايا ويقدّمون

الوعـود بالعشـرة الحسـنة وبـالرّفق والإحسـان ... ولكنّي قلت لهم جميعا:

- لا يتبـادرنّ إلـى ذهـن أيّ مـنكم أنّـي سـأبدّل المرحـوم بـأيّ كـان مهمـا تكـن عروضكم ووعودكم.

ردّوا عليّ :

- ولكـنّ المرحـوم مضـى إلـى حيـاة أفضـل ولن يعود.
- هـو عنـد اللّـه شـهيد والشّـهداء لا يموتـون وهو فيّ حيّ لم يمض ولم يبرحني.

كنـت أحـسّ أضـلعي تنطبـق علـى قلبـي كلّمـا ظهـر راغـب جديـد فـي شـرائي وتحـويلي إلـى ملكيّتـه أو كلّمـا سـمعت بمـن يقـدّم مهـرا أعلـى ثـمّ ازداد شـعوري بالفقـد حتّـى اسـتقرّ عنـدي أنّ الحيـاة بعـد الشّـهيد ضـنك لـن أقـدر عليه.

آه لو ينهض حيّا.

آه لو ينهض حيّا لساعة زمن.
لو يأتي فقط ليرى كم بكاه النّاس.
وكم حزنت عليه.
ويــردّ عنّــي هــؤلاء الخطّــاب المزايــدين علــى بعضهم بعضا في المهور وفي العطايا...

***

قال الرّاوي :
استفاقت المدينة على حادثة غريبة.
لم يتوقّع أحد ما حدث.
ولم يستوعب الخلق بسهولة ما جرى.
لا أحـد صـدّق أنّ عربـة المرحـوم تركـت فجـأة فـي ذلـك الصّـباح ركنهـا فـي بهـو الـدّار وشــقّت طريقها كشهاب نحو مقبرة المدينة.
اخترقــت الأنهــج والطّرقــات وأجبــرت حركــة المــرور علــى الانتظــار وظلّــت تجــري وتجــري وتجري إلى أن توقّفت أمام قبر رفيقها.

عنـدما شـارف اللاّحقـون بهـا هرولـة علـى الوصـول رأوهـا تتّكـئ علـى التّـراب النّـدي ... تحفـر لهـا بـذراعيها مـدخلا وتختفـي داخلـه وتنـدسّ حـذو رفيقهـا ثـمّ شـاهدوا وهـم يقتربـون أكثـر جـرح القبـر يلتـئم وأكداسـا مـن البرتقـال والتّفـاح والمـوز والرّمـان تغطّـي القبـر وتفيض على جوانبه.

الرّجل الذي آواه البيطريّ

لـم تكـن نشـرة الأخبـار تلـك اللّيلـة عاديـة أبـدا ولـم يخـرج معجمهـا عـن عبـارات الـذّبح والقتـل وإطـلاق الرّصـاص والملاحقـة والحـرق والتّعـذيب واليـتم والتّيتـيم والتّفجيـر وسـقوط الضّحايا.

قالـت زينـب لزوجهـا بعـد أن تأفّفـت طـويلا ونفـد صبرها:

- أرجـوك، دعنـا مـن هـذه الأنبـاء التـي نغّصـت علينـا اللّيـل والنّهـار وابحـث لنـا

عـن أيّ شـيء آخـر... تجـوّل بـين قنـوات الأفـلام والأطفـال والحيـوان والطّبيعـة واختـر لنـا مـا نقصّـر بـه الوقـت قلـيلا إلـى أن نهمد وننام.

أمسـك" سـي حامـد" جهـاز الـتّحكم عـن بعـد هامّـا بالبحـث عـن قنـاة لا تقـدّم أخبـارا ولا صـور قتـل ولا مـداهمات أمـن ولا كمـائن ولا ذبـح ولا إرهـاب غيـر أنّ صـوتا عنيفـا كصـوت ارتطـام أو كصـوت جسـم هـبط مـن أعلـى التقطتـه أذنـاه قادمـا مـن محـيط الـدّار اضـطرّه لتـرك التّلفـزة والنّهوض استعدادا للخروج.

وقفـت زوجتـه وسـارت وراءه... أشـعلا كـلّ الأضـواء وتوجّهـا نحـو البـاب الخـارجيّ... بـبطء أدارا القفـل وأطـلاّ فألفيـا عنـد العتبـة جسـما بشريّا يئنّ في خفوت.

أشـار "سـي حامـد" علـى زوجتـه بالـدّخول إشـفاقا عليهـا ولكنّهـا ظلّـت واقفـة وراءه...

أنفاسـها لاهثـة وركبتاهـا ترتعشـان وقلبهـا يـنطّ بعنف.

نـزع الـزّوج عـن الجسـم غطـاء الـرّأس الأسـود الطّويـل فطالعـه وجـه رجـل ثلاثينـيّ شـاربه محلـوق ولحيتـه كثّـة وأثـارُ الضّـنك باديـة عليـه...ربّت علـى وجنتيـه بلطـف فلـم يبـد عليـه أنّـه اسـتفاق أو اسـتجاب... شـرع فـي تفحّـص الجسـم مبتـدئا بالقـدمين فـألفى فـي السّـاق اليسرى جرحا ينزف .

- إنّه ينزف، قالت زوجته.
- سأدخله وأسعفه .
- لا تدخلـه ولا تسـعفه، أبلـغ عنـه رجـال الأمـن حـالّا وليفعلـوا بـه أو معـه مـا يشاؤون.

تـردّد البيطـريّ بـين الجـرح النّـازف ونصـيحة زوجته ثمّ وضع حدّا لتردّده وقال:

- سأسعفه وأعلمهم.

علـى مضـض سـاعدت الزّوجـة زوجهـا فـي إدخـال الرّجـل ذي السّـاق النّازفـة إلـى داخـل الـدّار وعلـى مضـض أحضـرت حقيبـة زوجهـا ووقفت إلى جانبه تساعده.

عـرّى البيطـريّ السّـاق ونظّـف الجـرح جيّـدا ثـمّ خاطـه وغطّـاه بضـمادة معقّمـة ثـمّ حقـن مريضه بمضادّ حيوي ومسكّن للألم.

تتبّعتـه زوجتـه إلـى أن أنهـى غسـل يديـه ثـمّ مدّت إليه هاتفها قائلة كالآمرة:

- الآن تفعل.

نظر إليها ...

إلـى السّـاعة الحائطيّـة المعلّقـة علـى الجـدار المقابل...

إلى المريض الغارق في نوم كنوم الرّضّع ...

إلى اللّيل الجاثم على القرية ...

ثمّ قال يستلّ الكلمات استلالا :

- لا أرى الوقـت مناسـبا يـا زينـب... لـن يكـون جمـيلا أن يطـوّق دارنـا فـي هـذا

الوقـــت رجـــال مـــدجّجون بالعصـــيّ
وبالسّـــلاح وســـيّارات الأمـــن والجـــيش...
لـــن يكـــون مناســـبا أن اســـتدعي قـــوّة
هائلة لجريح غارق في نوم كالموت.

عـــادا إلـــى حيـــث كانـــا متمـــدّدين أمـــام الشّاشـــة قبـــل ارتطـــام الجســـم بالبـــاب فألفيـــا فيها حـوارا يـدور بـين ثلّـة مـن رجـال السّياسـة... تتبّعـاه قلـيلا قبـل أن يُقطـع بـبلاغ عاجـل يحـلّ محلّه :

- أيّها المواطنون،

أيّتها المواطنات ،

جـدّ منـذ سـاعات قليلـة تبـادل لإطـلاق النّـار بـين مجموعـة مـن رجـال جيشـنا وأمننـــا الـــوطنيّين ومجموعـــة مـــن الإرهـابيّين حاولـت الهجـوم علـى مركـز للحـــرس الـــوطني وقـــد أســـفرت المواجهـات عـن وفـاة واحـد مـن رجـال

الحــرس وجــرح آخــر وأســر كــلّ أفــراد المجموعــة الإرهابيــة باســتثناء واحــد تحصّن بالفرار.

ثـمّ سـكت الصّـوت وظهـرت علـى الشّاشـة صورة الإرهابيّ الفارّ.

التفـت البيطـريّ إلـى زوجتـه الشّـابّة فـألفى وجههـا مسـودّا لا أثـر فيـه لنقطـة دم واحـدة ثـمّ انتبــه إلــى عينيهــا تنطفئــان وإلــى جســدها يرتخي.

أســرع يبلّــل وجههــا بالمــاء ويحــاول أن يعيــدها إلى الوعي.

كان يسعفها وهو يلهث لهثا ،

ويداه ترتعشان،

وأفكاره ترتعش،

وقلبه يخفق دون هوادة ولا انتظام،

وركبتاه تصطكّان،

ورائحة حريق تنبعث من تلافيف روحه وتملأ خياشيمه .

- سنتصرّف... لا تخافي ولا تخيفيني أرجوك.

اااااااااااااه لو كان بحوزته سلاح.

لو كان يملك اللّحظة مسدّسا لجرّ الجريح إلى خارج الدّار وأطلق عليه النّار وأراح منه الخلق وعاد إلى بيته مطمئنّا.

يذكر أنّه طالب إدارته مرارا وسلطات القرية بتمكينه من سلاح يحميه وزوجته، هو الذي أقدم دون غيره على الالتحاق بهذه القرية طبيبا بيطريّا يداوي أمراض قطعان الغنم والماعز والبقر والدّجاج والأرانب التي يعيش منها هؤلاء الرّيفيون .

قالوا له :

- أنت طبيب... لن يمسّك أحد بسوء ولن تكون في حاجة إلى أيّ سلاح.

فتحت زوجته عينيها ببطء وسألته :

- ماذا فعلت ؟
- هـا نحـن نقتـرب مـن الفجـر... سـويعات وينتهي كلّ شيء .

حـاولا أن ينامـا... أن يطـردا مـن ذهنيهمـا صورة الإرهـابيّ التـي بثّتهـا التّلفـزة ودعـت إلـى التّبليـغ عنـه فيمـا هـو راقـد تحـت رعايتهمـا وعلى مرمى ريشة منهما.

حـاولا أن يتناسـيا أنّ هـذا الملتحـي الممـدّد فـي بيتهمـا كـان منـذ سـاعة يهـاجم مجموعـة مـن رجـال الحـرس والجـيش وقـد يكـون هـو نفسـه مـن قتـل مـنهم مـن قتـل وجـرح مـن جرح.

أخـذتهما قبـل انبعـاث صـياح الدّيكـة إغفـاءة أفاقـا منهـا عنـدما حطّـت أشـعّة الضّـوء الأولـى على شبّاك غرفتهما.

وقفا مذعورين.

اتّجها إلى غرفة الرّجل الجريح.

فوجئا بالشّابّ واقفا يتأهّب للخروج.

وفوجئا بأنّ لحيته اختفت وأن شاربا كثيفا يتوسّط وجهه.

- لا تغادر الآن... لا يمكنك بعدُ استعمال ساقك... أخاف عليك.

أنا بخير... لا تخش شيئا ولا تقلق بشأني.

ثمّ توجّه نحو الباب.

عندما وطئت قدماه العتبة الخارجيّة، التفت إلى البيطريّ وزوجته اللّذين كانا ينتظران ابتعاده ليهاتفا منطقة الأمن الوطنيّ ... أدخل يده في جيبه وأخرج مسدّسا صوّب منه إلى رأسيهما رصاصتين صامتتين.. ومشى مطمئنّا يداري عرجه ويداعب شاربه الجديد ويتلمس متأسّفا مكان لحيته.

salehymabrouki@gmail.com

ذلك الحلم

كان الأمر مخجلا جدّا.

بدا لي أن لا أحد ممّن رآني لم يهزأ بي ولم يتّهمني بينه وبين نفسه بالجنون.

كنت تقريبا واثقا أنّ ما أقوم به ضرب من العبث... بحث لا طائل من ورائه... جري وراء السّراب... مضيعة للوقت وللجهد وحتّى للكرامة...

ولكنّني كنت في الوقت نفسه مقتنعا بأنّه لم يكن هناك بدّ من رحلة البحث تلك.

شارع بورقيبة الطّويل ..كم مرّة ذرعته وأعدت ذرعه؟

ذلك المقهى الذي تناولت فيه كأس شاي، كم عدت إليه وكم انكببت تحت طاولاته وكم تفرّست في عيون روّاده ؟

مطعم نهج القاهرة ذاك الذي تناولت فيه غدائي، كم عاودت الرّجوع إليه وكم فتّشت بعينيّ ويديّ تحت مقاعده وفي ركنه الصّحي وفوق منضدة صاحبه ؟

ذلك الشّبّاك البنكيّ الأتوماتيكيّ الذي سحبت منه مبلغا ماليّا، كم رجعت إليه ووقفت أمامه ووراء حرفائه وتفحّصت أرضيّته وتحدّثت إلى الواقفين في صفّه باستعطاف شديد ؟

كان الأمر مخجلا جدّا.

ولكنّه لم يكن بدّ من ذلك البحث ومن ذلك الخجل.

أحسست بالوقت يجري فسرّعت من نسق بحثي حتّى بدأت أسمع لهاثي وأشتمّ رائحة حريق تفوح من تلافيف روحي.

استندت إلى شجرة وبدأت أمسح براحتي جداول العرق المنساب منّي.

كان العرق قد غمر عينيّ حتّى كستهما غشاوة من ضباب. اقترب منّي كهل في مثل عمري وصبّ عليّ دون أن يستأذنني نصف قارورة ماء ثمّ مدّ إليّ ما بقي فيها مشيرا عليّ بابتلاعه.

- شكرا، قلت له.
- كنت أسير وراءك وانتبهت إلى ترنّحك وانحنائك وتيه عينيك وإلى الضّنك البادي عليك ثمّ رأيت عرقك وسمعت لهاثك فقلت أخفّف عنه بجرعة ماء.
- .....
- ولكن، قل لي ما بك وماذا ألمّ بك ؟

كنت في حاجة إلى أن يُلقى عليّ هذا السّؤال. كنت أودّ لو أنّ كلّ الذين التقيتهم اليوم بادروني به. وكنت في حاجة إلى أن أجيب.

- وصلت العاصمة هذا الصّباح... أفطرت وشربت الشّاي وتجوّلت وتناولت الغداء ثمّ لمّا ركبت تاكسي في اتّجاه المطار اكتشفت أنّي أضعت أوراق هويّتي وجواز سفري والتّذكرة والتّأشيرة... فتّشت في كلّ جيوبي وفي محفظتي وبين ثيابي ولحمي بل إنّني كدت واللّه أحفر داخل جلدي بحثا عمّا أضعت فلم أجد أيّ أثر لأيّة وثيقة .

ذرعت مرارا الطّرقات التي جبتها وتتبّعت مواطئ قدميّ وبحثت في كلّ المواطن التي مررت بها أو توقّفت فيها وانكببت أتثبّت داخل حاويات الفضلات وفي حواشي الطّريق وسألت عيون كلّ الذين اعترضوني

عمّا إذا كـان أحـد مـنهم أبصـر هويّـة وجـوازا وتذكرة وتأشـيرة.

نطق صدر الرّجل بتنهيدة في حجم وجعي :

- أنت تبحث عن إبرة في كدس من الرّمل.

- كدت أرفع صوتي بالسّـؤال فـي وجـه المـارّين أمـامي : "مـن مـنكم يـا عبـاد الله شـاهد هـويّتي وتذكرتي وجوازي وتأشـيرتي، لا أدري أيـن أضـعتها ولكنّي أحتاج إليها الآن كثيرا. عليّ أن أسافر هـذا المسـاء. جئـت العاصـمة هـذا الصّـباح وعلـيّ أن أغادرها والبلاد قاطبة اللّيلة، ولكنّي لا أجد الوثائق التي تخـوّل لـي السّـفر... والوقـت يجـري ولا حـلّ أمامي ولن تصدّق صـديقتي المنتظـرة هنـاك فـي مطـار "بـرلين" أنّـي ألغيـت سـفري لأنّنـي أضـعت أوراقي ولن ولن ولن..."

- ألم يقترب منك أحد ؟ ألم يحاول أحد أن يحتكّ بك؟

- لم أعد أذكر شيئا... أذكر فقط الأماكن التي مررت بها أو توقّفت فيها منذ نزولي من الحافلة هذا الصّباح. أذكر أنّ هويّتي كانت معي بعد وصولي ثمّ أذكر أنّني لم أجد لها أثرا لمّا هممت بالتّوجّه نحو المطار، أذكر أن لا أحد مرّ بي ولم يظنّ بي الخبل، وأذكر أنّني كنت خجلا جدّا وأنا أنحني على الحاويات وأتفرّس في وجه الطّريق وأفتّش في عيون الخلق، وأدرك الآن أنّي بفقداني اليوم جواز سفري وبطاقة هويّتي وتذكرة سفري وتأشيرة عبوري قد أضعت نفسي.
- ألم تسأل في مراكز الأمن ؟
- سألت فلم أظفر بشيء وقيل لي عدْ بعد أيّام أخرى.

حرّك الرّجل رأسه يمينا ويسارا وزمّ شفتيه، تنهّد... نظر إليّ بأسف ثمّ سلّم عليّ ودعا لي قليلا ثمّ اختفى في الزّحام.

فتحت للمرّة العشـرين محفظتـي وبحثـت بـين جيوبها وأعدت تفتيش جيـوب ملابسـي. حفـرت... حفرت... حفرت... ثمّ بدأ يستقرّ فيّ اليأس.

نظرت إلى ساعتي... كان بيني وبين موعد إقـلاع الطّائرة ساعتا زمن.

ستطير الطّائرة دوني.

وستنتظرني صديقتي الألمانية هناك فـي المطـار ثمّ ستعود منه إلى دارها غاضبة ويائسة وبائسة.

وسأعود أنا إلى مسقط رأسـي خجلا وتعيسا.

سأعود بـلا هويّـة...بلا أمـل... وسـيتّخذني أهلـي الذين كانوا البارحة في توديعي هزءا.

كان لا يزال في جيبي مبلغ مـن المـال أدخلـت يدي وأطبقت عليه وتوجّهت إلى محطّة الحـافلات أحجز لي تذكرة أعود بها إلى همّي وفراغي.

ارتميـت فـي أحـد المقاعـد... انتظـرت إلـى أن استظهرت بالتّذكرة ثمّ همـدت... رأيـت وأنـا هامـد والحافلة تشقّ اللّيل بطاقة هويّتي تتقاذفها الرّياح وتدوسـها الأرجـل والعجـلات... رأيـت جـواز سـفري

وتأشيرتي وتذكرة سفري في مهبّ الرّياح وفي أكداس الفضلات وفي المزابل... رأيت صديقتي الألمانيّة واقفة في طابور المنتظرين تجيل عينيها بين القادمين من تونس بحثا عن شابّ أحبّته واستلطفته من خلال الشّبكة العنكبوتيّة واختارته وبجّلته وأشفقت عليه فقرّرت أن تأخذه من فقره إلى جنّتها.

تمنّيت وأنا هامد أن تطول الرّحلة...

أن لا تتوقّف الحافلة...

أن لا تكون للطّريق نهاية.

للحظة، وأنا بين النّوم واليقظة بدا لي أنّني أمتطي الطّائرة وأنّني أعبر الأجواء وأنّني على أهبة الارتماء في أحضان ألمانيا.

تمنّيت أن يمتدّ الحلم...

وتمنّيت أن تستمرّ الرّحلة دون توقّف.

حقّق الحلم أملي فامتدّ قليلا .

ولـم تحقّـق الحافلـة أمنيتـي فأنهـت والفجـر يبـدّد هزيع اللّيل الأخير رحلتهـا وفتحـت أبوابهـا وقـذفتنا إلى الخارج.

مشــيت... مشــيت... مشــيت... ثـمّ طرقـت بابـا وارتميت وراءه واندسـست تحت غطاء بـارد محـاولا أن أستعيد ذلك الحلم.

تصميم الغلاف الإلكتروني: صالح مبروكي 2021

طالبتي التي تشبهني

- صباح الخير.

قلتها مبتسما باسطا راحتيّ محرّكا عينيّ في اتّجاه كلّ العيون فجاءني سريعا الردّ من كلّ نواحي القاعة:

- صباح الخير أستاذ.
- مرحبا بكم في مدارج الجامعة ومبارك لكم جميعا اجتياز عقبة الباكالوريا.
- الله يبارك فيك أستاذ.

كان يمكن أن يبادلني هؤلاء الطلبة نفس التهنئة لو علموا أنّني أنا أيضا أدخل الجامعة مدرّسا للمرّة الأولى فيقولون:

- أنت أيضا مبارك لك أستاذ دخولك الجامعة بعد ما اجتزت عقبة الدّكتوراه ومناظرة الانتداب.

كنت فرحا.

وكانوا فرحين.

وكان سبتمبر منتشيا بعودة البهجة والحركة إلى الشّوارع والأنهج والحافلات والمدارس والمعاهد والكلّيات وبحلول نسمات خريفية حلّت محلّ رياح الشّهيلي وخفّفت كثيرا حرارة الطّقس.

اقتربت منهم وتجوّلت بينهم وسألتهم عن أحوالهم وعن دوافع اختيارهم لهذه الشّعبة التي يقول عنها الجميع إنّها لا تشغّل خرّيجيها ولا تطعم الخبز.

تجوّلـت قلـيلا بـين الصّـفوف ثـمّ عـدت إلـى مكتبي وشرعت أقدّم لطلبتي الجدد أضواء علـى برنامج عامهم الأوّل بالجامعة. كنت أُمْلي وأنا أقـرأ وجوه طلبتي وكانوا يكتبون وهـم يسـترقون النّظـر إليّ.

كانت عيناي تتردّدان بين حاسوبي أستعين به فـي تقـديم برنـامج السّـنة وطلبتـي أقـرأ علـى وجــوههم البهجــة والفضــول والخــوف والاغتــراب ولكنّهما كانتا تذهبان كثيرا فـي اتّجـاه واحـدة مـن طالبـاتي لا أدري لمـاذا حـدّثتني نفســي الأمّـارة عادة بالشكّ وبالتّهويل أنّها... تشبهني.

لـم أقـل لكـم طبعـا إنّنـي رجـل مصـاب بخيـال يشتغل كثيرا ولا يعتـرف بالحـدود الـدّنيا للمنطـق والمعقول.
أهوّل الأمور كثيرا.
وأذهب إلى ما لا يذهب إليه غيري.
وأتوقّع غالبا أحداثا لا تقع بعد ذلك أبدا.

وأقضي أحيانا أوقاتا طويلة تحت وقع الغضب بسبب مشكلات وخصومات وخلافات لم تحدث إلاّ في... خيالي.

رددت ادّعائي بأنّ الفتاة تشبهني إلى خيالي المنفلت دائما. ولكنّ عينيّ ظلّتا تذهبان إليها وتحطّان على تفاصيلها حتّى أنّي خشيت أن ينتبه زملاؤها إلى أنّني أخصّها بنظراتي.

ماذا لو حدث ذلك ؟

ماذا لو حدث ذلك وأنا أبدأ مع هؤلاء الطّلبة عهدا جديدا تعبت كثيرا قبل أن تطأه قدماي ؟

وهل سيكون جميلا أن أخيّب منذ الحصّة الأولى أمل طلبتي فيّ فيغادرون القاعة ولا حديث لهم إلاّ عن أستاذهم ذي العينين الزّائغتين زير الطّالبات الذي جاء يدرّسهم الحضارة العربيّة؟

قرّرت أن أحبس عينيّ في حاسوبي إلى أن تنتهي الحصّة ثمّ لا أدري كيف نبتت فيّ وألحّت عليّ فكرة خبيثة : قلت أحاول أن أتذكّر وجهي وأقارنه بوجه طالبتي الجالسة على مرمى وردة

منّي لأضع حدّا لهذا الهاجس الذي أخشى أن يفسد درسي الأوّل بالجامعة... قلت ذلك وعزمت عليه ولكنّي بعد محاولات عديدة لم أجد لوجهي في ذاكرتي أثرا... فتحت خانة الصّور التي يحويها حاسوبي وأخرجتُني منها ونظرت إليّ ثمّ حرّكت بصري منّي إلى طالبتي فتأكّدت أنْ لا علاقة لما استنتجته عيناي بانفلات خيالي وازددت يقينا أنّ الفتاة تشبهني. العينان عيناي والأنف أنفي والفم فمي والوجنتان كأنّهما وجنتاي ولون البشرة مشترك بيننا وليس بين وجهينا اختلاف.

- أشكركم كثيرا وأرجو لكم عاما طيّبا... تفضّلوا بالخروج.

طوى الطّلبة حواسيبهم وكراريسهم وأسرعوا نحو الباب. لم أكن الوحيد الذي تلكّأ في جمع أدباشه ومغادرة القاعة... طالبتي التي تشبهني تلكّأت أيضا حتّى إنّها كانت آخر المغادرين وكانت تتعمّد أن تضع عينيها في عينيّ وتتأمّلني.

ليلتها لم أنم ولا فارق وجهها وجهي ولا طيفها خيالي.

تمنّيت لو أنّ واحدا من الطّلبة تجرّأ وقال لي مثلا : أستاذ، بينك وبين زميلتنا هذه شبه واضح.

لو كان شهد بالشّبه غيري لزاد يقيني أنّه قائم لا لبس فيه وأن لا علاقة له بخيالي المريض.

ثمّ ألحّ عليّ سؤال:

ما يهمّك أنت في هذا الشّبه؟ هبه قائما لا لبس فيه ولا اختلاف... لنسلّم أنّ وجهك وجه الفتاة أو أنّ وجه الفتاة وجهك... ألا يتشابه النّاس! ألم نقل دائما أنّ الله قادر على أن يخلق من الشّبه أربعين؟

قلتُ لي ذلك وشرعت في استحضار أشخاص يتشابهون كثيرا.

أعادني سؤالي إلى عقلي فقرّرت أن أسلّم بالشّبه وأن أدع التّفكير فيه نهائيّا وأقنعت نفسي أنّني كنت مهتمّا بمسألة لا تدعو إلى الاهتمام.

وبدأت أنسى طالبتي.

وانشغلت عن الأمر بأحداث أخرى...

إلى أن جمعتني بشبيهتي حصّة الدّرس بعد ثلاثة أيّام.

دخلوا.

ودخلت.

وكانت آخر الدّاخلين.

- مرحبا أستاذ... قالتها متلعثمة.
- مرحبا... قلتها أكثر تلعثما.

في الصّوت رنّة ذكّرتني بماض أصبح الآن بعيدا.

تبخّر قراري بالعدول عن التّفكير في طالبتي أو في شبهي بطالبتي وبعسر شديد وتلكّؤ واضطراب أكملت حصّة ذلك اليوم ولأداري ارتباكي وأبدو أمام طلبتي متماسكا خرجت عن فحوى الحصّة وبدأت أسأل كلّ واحد منهم عن اسمه ولقبه ومدينته وظروف إقامته وانطباعه حول الجامعة والطلاّب والدّروس والأساتذة...

نجحت عن طريق لعبة التّعارف تلك وما كان يدور بيني وبين الجماعة من أسئلة وأجوبة في استعادة توازني الذي فقدته أوّل الدّرس عندما التقطت عيناي وجه شبيهتي والتقطت أذناي صوتها ورنّته المميّزة التي ذكّرتني بصوت مّا.

- أهلا بك من جديد .
- شكرا أستاذ - ولم تنتظر سؤالي- اسمي "بثينة".... أكملت منذ شهر العشرين وأنا قادمة من جنوب البلاد.
- آه، أنت تحبّين الحضارة العربيّة كثيرا... ها أنت تجيئينها من قاع الخريطة.
- نعم أستاذ، أنا من مدينة.....

منذ عشرين عاما ودقّات قلبي لا تحيد عن انتظامها ولا يعتريها اضطراب ولا تتأثّر بما يجري فيّ وحولي...

قبل ذلك عانيت زمنا اضطرابها ثمّ أقلقني الأمر لمّا تأكّدت أنّه ليس طارئا ولا عارضا فعرضت قلبي

على أخصّائي فحصه ونظّم بدواء فعّال دقّاته ووعدني أنّني لن أشعر أبدا بتسارع الضّربات أو تباطئها.

اليوم وبعد أن نطقت شبيهتي باسم مدينتها عادت دقّات قلبي إلى اضطرابها الذي تخلّت عنه منذ عقديْن من الزّمن...

دقّ قلبي بعنف...

خلت أنّ طبلا يقرع داخل صدري.

أصابني إغماء سرعان ما استفقت منه.

شكرت بكلمات متسارعة طالبتي وطلبت من بقيّة زملائها أن يتناوبوا على تقديم أنفسهم واحدا تلو آخر...

كنت أوزّع ابتسامات بلهاء وأعقّب بكلام أجوف قتلا للوقت الذي لا أدري لماذا يومها طال وامتدّ وتمطّط.

لم يَعْن لي اسمها شيئا، فـ"بثينة اسم ضارب في القدم متداول بين الفتيات. ولم تعن عبارة

جنوب البلاد شيئا مخصوصا فالجنوب مدن كثيرة وبشر بلا عدّ وتاريخ طويل وذكريات لا حصر لها.
ولكنّ ما أخرج قلبي عن عقله اسم المدينة.
أنا الآن ممدّد على سريري.
على يميني قهوة سوداء باردة.
وعلى يساري علب سجائر تستحيل واحدة بعد أخرى إلى دخان يملأ سماء الغرفة وإلى رماد يملأ منفضات السّجائر.
وبين عينيّ المدينة التي سكنتها عاما منذ واحد وعشرين عاما. كان عمري في العشرين عندما حصلت على شهادة الباكالوريا ولست أدري لماذا اعتقدت واعتقد أهلي أنّ ما بلغته من الدّراسة يكفيني وأنّه آن الأوان لأنتقل إلى عالم الوظيفة والجراية .
عُيّنت معلّما بإحدى مدارس تلك المدينة.
اكتريت منزلا قريبا من المدرسة ووزّعت وقتي بين تلاميذي ودروسي والمطبخ والمقهى.

سماء غرفتي الآن أسود.

هواء غرفتي الآن خانق جدّا.

ورأسي يدور.

يدووووووووووووور

يدور رأسي.

يعود بي من عامي الأوّل هذا أستاذا في الجامعة متخصّصا في الحضارة العربية إلى عامي الأوّل معلّما بتلك المدرسة من تلك المدينة مرورا بالتحاقي ذات زمن بالجامعة وحصولي منها على الأستاذيّة وانتقالي إلى التّعليم الثّانوي ثمّ انشغالي بالمرحلة الثّالثة ووصولي إلى مرتبة الدّكتوراه.

رأسي يدور.

يدور رأسي.

يأخذني من طالبتي التي تشبهني إلى امرأة حطّت بي الصّدفة وحدها ذات عام في مدينتها وفي دار تلاصق دارها... امرأة طرقت بابي ذات

ليلة تطلب أن أركبها في سيّارتي إلى المستشفى للّحاق بزوجها الذي بلغها حينها أنّه أصيب في حادث شغل.

طرقت بابي ليلتها.

ثمّ أصبحت تطرقه باستمرار طيلة الشّهور التي احتفظ فيها بزوجها قسم العظام...

وأصبحنا نتزاور ونقضي لدى بعضنا البعض أوقاتا طويلة من القيلولة واللّيل...

كنت بكرا.

وكانت فاتنة.

وكان ذلك عامي الأوّل والأخير بتلك المدينة التي جاء اليوم من يذكّرني بها ويعيدني إلى تفاصيلها وإلى ذكرى امرأة فيها حسبتني نسيتها أبدا.

طالبتي...

تلك المرأة...

تلك المدينة...

رنّة الصوت...

الواحد والعشرون عاما...

العشرون ربيعا...

هل كان عليّ أن أعير مسألة الشّبه كلّ ذلك الاهتمام ؟

هل كان عليّ أن أسأل "بثينة" عن مدينتها ؟

هل...

هل...

هل...

؟

احتمالان

(1)

كأنّ المداشر والقرى وكلّ المدن خلت تماما من سكّانها...
كأنّه لم يبق في البيوت وفي الأنهج وفي الدّكاكين والمكاتب امرأة ولا رجل...
وكأنّ ساحة القصر امتدّت واتّسعت وتمطّطت فأصبحت تتّسع لكلّ هذه الآلاف المؤلّفة من البشر.

معا جاؤوا.
في وقت واحد جاؤوا.
بنفس الوجوه.
بنفس الغضب.
بنفس الهتاف.
بنفس احمرار العيون.
تجمّعوا حول القصر وأحاطوا به.
زحفوا.
زحفوا.
زحفوا...
إلى أن طوّقوا بناية القصر من كلّ الجهات.
كانوا كلّما ضيّقوا الحلقة حول البناية ازدادوا يقينا أنّ القصر ومن فيه أصبح في متناولهم.
هتفوا :
- الرّحيل... الرّحيل...
ردّدوها مرارا بغضب أشدّ في كلّ مرّة :
- الآن.. الآن وليس غدا.
ردّدوها بتصميم أعنف.

اختلطت الأرجل وتشابكت الأيدي وتلاصقت الرّؤوس وتراصّت الأجساد وازداد الهتاف ارتفاعا.
حلّقت فوق القصر والآلاف المحيطة به طائرة صغيرة رصدت الغضب وسجّلت الهتافات وقرأت ما على الوجوه من تصميم و عزم ثمّ اختفت ليطلّ بعدها من شرفة القصر بالطّابق الأوّل من يركّب مكبّرات الصّوت ويشير على الغاضبين بالهدوء ريثما يطلع الملك عليهم فيلقي فيهم كلاما.
قالت طائفة منهم :

- مللنا كلام الملك... لن نسمع منه بعد الآن حرفا واحدا.

وقالت طائفة أخرى أكثر عددا :

- دعونا نسمعه، لن نخسر شيئا.

وأطلّ الملك.
لم يره النّاس قبل ذلك اليوم بشعر منفوش ولا بوجه منهك ولا بعينين غائرتين ولا بيدين مرتعشتين ولا بفم يابس.
بدأت الهتافات تخبو.

ثمّ عمّ الصّمت.

ابتسم الملك ابتسامة صفراء باهتة مرتعشة ثمّ بدأ يتكلّم:

- أيّها الشّعب الكريم...

سمعت هتافكم وفهمت غضبكم ولأنّكم كنتم دائما مطيعين متفهّمين فسأتفهّمكم وأجيبكم إلى ما تطلبون.

عودوا الآن إلى بيوتكم.

عودوا إلى بيوتكم ولا تدفعوا مقابل الخبزة أكثر من مائة ملّيم بعد اليوم.

عودوا إلى بيوتكم ولا تدفعوا مقابل معاليم الماء والكهرباء والهواتف بأنواعها أكثر من شطر ما كنتم تدفعون.

عودوا إلى بيوتكم وستجوب دياركم خلال شهر واحد لجان محلّفة تسجّل أسماء العاطلين وبياناتهم وأسماء المعوزين وحاجاتهم وأسماء المرضى وحالاتهم.

عودوا إلى بيوتكم وسنخفّض ثمن كيلو اللّحم إلى النّصف منذ اللّيلة
والخضر والغلال إلى الثّلث وستصبح موادّ البناء في متناولكم جميعا.
عودوا إلى بيوتكم واشربوا الخمور ودخّنوا السّجائر بثلاثة أرباع أثمانها.
عودوا إلى بيوتكم وسنزيد جراياتكم ومنحكم ولن تمسّكم فاقة بعد اليوم.
عودوا إلى بيوتكم .....
عودوا إلى بيوتكم .....
عودوا إلى بيوتكم .....

كأنّ كلام الملك كان سحرا.
محا ذلك الكلام كلّ الغضب الذي امتلأت به الصّدور وغصّت به الحناجر.
محاه كما يمحو الرّيح كتابة على وجه رمل.
محا الملك كلّ شيء.

تبدّلت تلك الهتافات بعد ذلك الخطاب إلى هتافات تأييد ومديح وثناء وعرفان بالجميل.

وعجّت ساحة القصر بهتاف جديد:

- يحيا الملك.

وبدأت الحلقة تتلاشى والجماهير تولّي الأدبار وبناية القصر تستعيد أنفاسها.

(2)

كان هادرا غضب ذلك اليوم.

ترك النّاس كلّ مآربهم وجاؤوا منذ الصّباح يحاصرون الملك في قصره ويطالبونه بالرّحيل...

كان التّصميم في عيونهم وأذرعهم وحناجرهم ولاشيء كان يوحي بأنّهم سيرتدّون عمّا جاؤوا لأجله واتّفقوا عليه أو أنّ قوّة مّا ستردّهم عمّا عزموا عليه...

اشتبكت أيديهم وأرجلهم وتلاصقوا حتّى أصبحوا جسدا واحدا وصوتا واحدا وعقلا واحدا.

تقدّم النّهار وتزايد عدد الخلق وأصبح الصّوت أعلى والتّصميم أشدّ وضاقت حول قصر الملك الحلقة حتّى أصبح كالعشّ في غصن شجرة وارفة.

صاح صائح:

- الفرصة الآن بين أيدينا فلننقضّ عليها..

وصاح آخر:

- إن لم يرحل اليوم فسيظلّ جاثما على صدورنا إلى أن يبيدنا.

ثمّ غطّى على صوت الهتاف هدير طائرة حلّقت فوق الحشود... تأمّلت وجوههم وتفرّست في عيونهم... ثمّ اختفت.

قال قائلهم :

لعلّه يمتطيها الآن في اتّجاه بلاد بعيدة.

ثمّ غطّت السّماء طائرات أخرى وبدأ ينهمر من بطونها ماء حارّ كالجمر... ومع الماء السّاخن النّازل من أعلى انهمرت من جوانب القصر قنابل مسيلة للدّموع ورصاص حيّ...

تركت الأجساد المحترقة مواقعها وفرّت في اتّجاهات عمياء من الدّخان ومكتوية بماء الطّائرات المشتعل وبدأت الأبدان تسّاقط يسيل من فوقها الماء وينزف من جوانبها الدّم و الجثث تتهاوى ووقعت أجساد كثيرة في قبضة رجال الأمن الذين

فتحوا أبواب سيّاراتهم وشرعوا يعبّئونها بمن يقع بين أيديهم من الفارّين والفارّات.
ولم تمرّ ساعة زمن حتّى خلت ساحة القصر ممّن كانوا يردّدون هتافات الرّحيل.
وامتلأت دور الموتى في المستشفيات بالجثث وغصّت مراكز الأمن بالموقوفين.
وأصبح بعد ليلة سوداء يتصدّق حمدا لله على نجاته من لم يطله الرّصاص ولا أذرع رجال البوليس.
وأصبح بعد ليلة سوداء يضمّد جراحه خلسة من عنّفه البوليس ساعة ثمّ رموه في الشّارع نصف ميّت.
وأصبحت تتباكى أمام مكاتب المحامين ومراكز الأمن العائلات التي وقع أبناؤها وبناتها في الأسر.

....

وأُعلن في التّلفزة أنّ تحويرات هامّة أُحدثت في تشكيلة الحكومة شملت وزراء الدّاخلية والدّفاع والعدل.

"آدم" و"صابرة"

- مساء السّعادة.
- مرحبا بك.
- أشكرك كثيرا على قبول دعوتي والتّفضّل بضمّي إلى قائمة أصدقائك.
- العفو.
- سأبادر بتقديم نفسي بما يتيح لك أن تكوّني عنّي فكرة واضحة. هكذا أنا، لا أحبّ أبدا أضيّع وقتي ولا أن أستهين بوقت

الآخـــــرين... اســمي "آدم" وأنــا طبيــب أسنان أقيم في مدينة ساحليّة وأعمل بها.

توقّعـت مـثلا أن يكـون الاسـم مسـتعارا فـذلك يحدث دائما ولكنّهـا لـم تجـد موجبـا لتشـكّك فـي المهنة ومدينة السّكن.

كتبت :

- تشرّفنا دكتور آدم .

كان سيكتب: "أنا والله أكثر شرفا"، ولكنّه رآهـا بصدد الكتابة ففضّل الانتظار.

- اســمي "صــابرة "، موظّفــة فــي إحــدى الإدارات، ولن أخفي عنك مـا تحـرص علـى اخفائـه كـلّ النّسـاء : عمـري الآن ثلاثـون عاما.
- الاسـم جميـل والوظيفـة محترمـة وتفضّـلك بذكر العمر زادني بك شغفا.
- .....
- أمّا أنا فأكبرك بعقد من الزّمن.
- C’est pas grave

- هذا من لطفك سيّدة "صابرة".
- لماذا سيّدة ؟ تكفي "صابرة".
- ها أنت تأسرينني سريعا بهذه الشّخصية الجريئة المنفتحة التي لا تؤمن بالعقد.
- متزوّج طبعا ؟
- كنت . قالها دون تردّد كأنه كان ينتظر السّؤال.
- أعتذر إن كنت تسرّعت في التسلّل إلى تفاصيلك الدّقيقة .
- لا، أبدا... هي الحياة... نحن نجرّب والحظّ يقف معنا أو علينا.
- سليم كلامك... الحظّ يوجّه حياتنا ...آاااه.
- اللّطف عليك... لماذا هذه الآاااه ؟ لا تقولي إنّك تعيشين مثلي الانفصال.
- لا.
- أرْ... وأحجم عن كتابة بقيّة الكلمة .
- لا.
- عزباء ؟

- يا ليت.
- حيّرتني.
- تستطيع أن تقول أنّني شبه متزوّجة.
- بدأت أفهم.
- ماذا فهمت ؟
- زوجة...واعذريني ...بلا زوج.

أبطأت في الردّ فبدأ يفكّر في عبارات اعتذار تنسيها سلاطته وتعيد الحوار إلى انسيابه الأوّل غير أنّه لمح كتابة في الطّريق إلى نافذته.

توقّع أن تلومه...

أن تنهره...

أن تعتذر عن مواصلة الكلام...

ولم يتوقّع أن تكتب له:

- زوجة بلا زوج: هذا هو التّوصيف السّليم.

غمرته البهجة... بل إن شعور البهجة ذاك تحوّل إلى ما يشبه الفخر... ها هو بجسارته يختصر أشواطا من الزّمن وها الحظّ يضعه بين يدي امرأة تعاني إهمال زوجها وتبحث له عن بديل... تذكّر

الآه التي أطلقتها منذ حين فأدرك أنّ هذه النّافـذة التي جاد بها الفايسبوك اللّيلة ستهديه إلـى متـع لا حدود لها.

- خسارة... لا يهتمّ بك ؟
- اطلاقا.

اعتراه شعور كالخوف /

كالنّدم /

كالأسف /

كالخيبة...

كاد يتعلّل بأيّ سبب مقنع وينسحب من المحادثة.

كاد ينسحب ويغادر.

ثم أخذ يعاند خوفه ويغالبه حتّى غلبه.

- سبّق الخير... كيف تظنّ بها القبح وأنت لـم ترها... أفلا تكون لامبـالاة الـزّوج بزوجتـه إلاّ بسبب قلّة حظّها من الحسن ؟!
- أين أنت ؟
- هنا عزيزتي، كنت ألعنه في سرّي...

- هههههههههه حسنا فعلت.
- الدّنيا حظوظ - وأعاد إليها تنهيدتها-
- اللّطف عليك.
- صدّقيني، لو انتبهت التي كانت زوجة لي قليلا إلى واجباتها نحوي لما كان الطّلاق.
- دعك منها ولا تندم على ما فات.

للحظة، تمنّت لو كانت مطلّقة... لو كانت بلا رجل... تمنّت ذلك حتّى يكون متاحا لها أن تمضي شوطا أبعد مع طبيب الفايسبوك هذا الذي أغراها بصدقه وسحرها بلباقته وأثّر فيها بتنهيدته.

- أين اختفيت ؟ لم أعد أطيق بعدك.
- كنت ألعنها في سرّي... جنت على نفسها وعليك.
- حسنا فعلت... هي لا تستحقّ غير اللّعن ولكنّي لن أدع العمر يمرّ هدرا... أنا بصدد البحث عن امرأة.

انقبض قلبها وارتخت أصابعها على ملامس الحاسوب.

وجمت برهة ثمّ شرعت تعاند خوفها حتّى غلبته.

- امرأة للزّواج ؟

لو كان السّؤال منطوقا لفهم منه اختلاج صوتها وارتباكها وشعورها بما يشبه فقدان الأمل.

- لا طبعا... امرأة للصّداقة.

عاد إلى وجهها لونه الورديّ المثير وعادت أصابعها تُشحن بطاقة عنيفة للكتابة وعاد إليها الأمل.

- هل وجدتها ؟
- وجدتها... هي بين يديّ... أعجبني ذكاؤها المتّقد وانفتاحها على الدّنيا وامتلاؤها بالعطف وبالأمل...سأطلب منها الآن فقط أن تتكرّم وتشغّل الكاميرا حتّى أراها، فهل ستسمح ؟
- .....
- الو
- .....
- الو
- .....

هكذا هنّ نساء الفايسبوك، يسايرنك كثيرا حتّى إذا ما وصل الأمر إلى الصّورة غضبن وتركنك وهجرنك.

سينتظر عودتها... وسيعتذر لها وسيقول:

- دعينا من الصّورة وتعالي نمضي قدما في ما شرعنا فيه.

لاحظ كتابة في الطّريق إليه...

انتظرها على خوف ثمّ جاءه سطر ليس فيه ممّا توقّعه شيء...

لم يحمل له ذلك السّطر غضبا ولا ما يدعو إلى الخوف والاعتذار.

- اعذرني، فهمت أنّ السّهرة معك ستطول فقمت أجلب لي قهوة سوداء أستعين بها على اللّيل والنّوم و...هههههه وعليك.

التفت إلى زوجته المنزوية في الرّكن الآخر من الغرفة الواسعة وهمّ أن يقول لها :

- من فضلك، هات لي قهوة أستعين بها على النّوم.

ولكنّه أحجم عن ذلك وكتب لصديقته :

- أشتهي قهوة أنا أيضا ولكنّي لن أغادرك إلى المطبخ وأتركك وحيدة ولـــو للحظة واحدة، صدّقيني، لم أعـــد أطيق الابتعاد عنك.
- لم يقل لي أحد كلاما جميلا منذ زمن.
- سأشبعك به وبأشياء أجمل.

أحسّ أنّه تسرّع مرّة أخرى وتمنّى لو كان بإمكانه أن يسحب السّطر الأخير ولكنّ السّطر طار كعصفور تُرك له الباب مفتوحا وحطّ بين عيني صديقته الفايسبوكية الجديدة... بدأ يكتب ما يشبه الاعتذار ولكنّ عصفورا من قفصها حطّ بين عينيه.

- أرجو ذلك.

تمنّى لو كانت عن وعي تامّ اختارت "أرجو" لا "أتمنّى". تمنّى ذلك من كلّ قلبه وغلبه الفرح وشعر بما يشبه الفخر.

- تعرفين لماذا رغبت في صورتك ؟
- لماذا ؟
- سأرتاح برؤيتها أكثر... أجد صعوبة في محاورة شخص لا صورة له في مخيّلتي... صورتك وما تكتبين معا سيجعلانك أمامي فعلا كأنّك بين يديّ.
- لست أدري لماذا ارتحت إليك كثيرا.
- لأنّني صريح جدّا... صادق جدّا... أحبّ بسهولة ولا أكره إذا أحببت.
- ولكنّك كرهت زوجتك ؟
- الحقيقة أنّني لم أحبّها قطّ...لعلّها أخطاؤنا حين نكون صغارا وحين تعوزنا التّجربة... لعلّها أخطاء غيرنا نتحمّل وحدنا وزرها... لعلّه الحظّ ...
- سأسألك: ماذا تريد منّي صراحة ؟

شجّعني على سؤالي هذا قولك إنّك صادق جدّا.

كان الجواب حاضرا لديه ولكنّه تردّد قبل أن يرسله إليها مخافة أن تثور في وجهه ويذهب هباء كلّ ما شيّده اللّيلة... تردّد... ثمّ قاوم تردّده وقال لها:

- كلّ شيء.

خمّن أنّها ستحجم عن التّعليق وأنّها ستغيّر الموضوع وأنّها قد تقول له... "سؤالي ندمت عليه وجوابك أفسد كلّ شيء"، ولكنّها ضحكت وكتبت:

- هههههه... ألا ترى أنّنا نتحادث كأنّ معرفتنا ببعضنا بعضا تعود إلى زمن طويل ؟ ألا ترى أنّنا مضينا سريعا وبعيدا جدّا منذ لقائنا الأوّل ؟ ألا ترى أنّنا نلتقي كأنّنا التقينا قبل اليوم مرارا وتحدّثنا من قبل طويلا ؟

- ألا تـؤمنين بالقـدر؟ إنّـه القـدر يـا "صـابرة ". القدر هو الذي اختارنا لبعضنا بعضا وجمّعنـا وقرّبنا.
- .....
- الأعمار يا "صابرة" رمشة عـين ،هـل ترينهـا تتّسع للتردّد وتضييع الوقت وإهـدار الفـرص ؟ هي تجري وعلينا أن نكون أسرع منها.
- ذلك ما آمنت به دائما يا آدم، ولكن دعنا من الأعمـار ولنعـد إليـك : كيـف تعـيش بعـد الطّلاق وكيف استطعت الحياة بلا امرأة ؟
- أمّـا الطّـلاق فـأجبرتني عليـه لامبالاتهـا... - ولـم يقـل لا مبـالاة زوجتـي أو طليقتـي أو التـي كانـت امرأتـي- وأمّـا الحيـاة فجميلـة بالأمل... أنـا أعـيش علـى أمـل أن أصـادف أنثــى حقيقيّــة تشــاركني حــبّ الحيــاة وبهجتهـا وهـا بـاب العـرش يُفـتح اللّيلـة ويضعك أمامي.

- أنت تبهرني بطريقتك في الكلام وأسلوبك في الإقناع.
- وأنت، ماذا ينفّرك منه ؟
- باااااااااااااارد كالجليد.
- أنا أعوّضك عنه... ضعي يدك على كتفي وثقي بي.
- ثقتي فيك كبيرة فلا تضيّعني أرجوك.
- أحبّ أن أراك الآن... أحبّ أن أراك اللّحظة... نفد صبري.
- لست وحدي.
- شغّلي الكاميرا لنصف دقيقة ثمّ أطفئيها.

قرّبت منها حاسوبها...أحاطت به بذراعيها ونهديها حتّى أصبحت شاشته في صدرها... هي أيضا كانت لديها رغبة لا تقاوم في رؤية طبيب الأسنان هذا الذي سحرها بلطفه ولباقته.

هو أيضا التصق بالحاسوب.

وهنا وهناك ضغطت يدان في آن واحد على زرّ الكاميرا... ظهر أمام كلّ منهما مربّع أزرق ثمّ

سرعان ما انسحب اللّون الأزرق فاسحًا المجال لصورة "صابرة" على شاشة آدم ولوجه آدم أمام "صابرة"...

وهنا وهناك أسرعت تلك اليدان تضغط على الكاميرا لإطفائها !!!

تحوّلت عيناه من الحاسوب إليها.

وصوّبت هي نظرها متّقدا نحوه.

كانت عيناه ملتهبتين كقطعتي جمر.

وكانت عيناها متحفّزتيْن كغرابين متوثّبين للطّيران.

معا أحسّا أنّ كلّ كلام الدّنيا لن يفي بما يجب قوله ولن يطفئ الغضب المشتعل في العروق ولن يغطّي على الخجل ولن يردّ الاعتبار.

وقفا...

همّت به...

وهمّ بها...

ولكنّهما تماسكا...

وأخذت خطواتهما تتباعد.

تركا غرفة قاعة الجلوس أين كانا يقبعان في ركنين متباعديْن وانسحبا كلّ إلى غرفة مستقلّة.

ضرب آدم بقدمه فنجان القهوة الذي أحضرته زوجته منذ ساعة لتستعين به على اللّيل وعلى النّوم وعليه... وتناول حاسوبه ومضى إلى الدّاخل. ولملمت "صابرة" جهازها وأسرعت تندسّ في سريرها وتغلق وراءها الباب.

حاولا أن يناما فاستعصى على عينيهما النّوم.

عاد هو إلى حاسوبه يبحث عن "صابرة " أخرى... ولم تجد هي حلاّ غير تشغيل جهازها من جديد بحثا عن رجل لا يكون اسمه "آدم" ولا علاقة له بطبّ الأسنان ولا يقيم في مدينة ساحلية.

ذات سفر

جاوزتَ وسط المدينة متأنّيا ثمّ توقّفت عند آخر محطّة وقود وطلبت من العامل هناك أن يملأ الخزّان إلى آخره وبدأت سيّارتك الفارهة تطوي وراءها آخر المباني... المستوصف والمعهد الثّانوي ومعمل الملابس المستعملة والمستشفى والثّكنة العسكريّة... وبدأ الطّريق يمتدّ أمامك أسود طويلا كثعبان وبدأت سيّارتك الفارهة تبتلعه ابتلاعا... لاح لك جسد غليظ طويل يشير عليك بالتوقّف ويؤرجح في وجهك حقيبة

سفر مادّا ساقه إلى الطّريق كأنّه يريد أن يوقفك قسرا.

تردّدت قليلا ثمّ ضغطت على دوّاسة السّرعة مصمّما على تجاهله ولكنّك عدت تتردّد من جديد فخفّضت سرعتك وأنت تقول بينك وبين نفسك:

- الطّريق طويل وبينك وبين أوّل مدينة مسير ساعة زمن فلِمَ لا تصطحب معك هذا الغليظ الطّويل تقصّر به الوقت وتقتل به الطّريق وتستأنس به ؟

جذب الرّجل الباب وارتمى إلى جانبك متأفّفا وقال لك:

- انطلق الآن.

وإذ استغربتَ أنّه لم يلق عليك التحيّة ولا شكر لك لطفك وتوقّفك لإنقاذه من تعب الانتظار... لزمت الصّمت وعزوت ذلك إلى ضنكه من شدّة

الوقوف واشتداد البرد عليه وخمّنت أنّه سينتبه لا محالة بعد حين وسيشبعك شكرا وإطراء.

نظرت اليه فألفيته ذا رأس ضخم لعلّك لم تر أضخم منه... ووجه أحمر سمين إلى درجة الانتفاخ...

قلتَ لك :

- حيّه أنت واسأله عن حاله وعن مقصده وتبيّن أمره ليطمئنّ قلبك.

هممت بالكلام ولكنّ صاحبك فاجأك :

- أطفئ سيجارتك فأنا لا أكره شيئا مثل التّدخين والمدخّنين.

لم تعلّق على طلبه ولكنّك أطفأت فعلا سيجارتك وفتحت النّافذة ورميتها إلى الرّيح.
أحسست أنّ شهيّتك للكلام انقطعت... فلذت بالصّمت وبالتّرقّب ولكنّك لم تترقّب طويلا إذ فاجأك رفيقك متذمّرا :

- سنقضي كلّ اليوم في الطّريق إن ظللت تقود بهذا النّسق المميت... تبدو سيّارتك جديدة تماما فأطلق لها العنان فنربح الوقت ونتجنّب التّعب.

ضغطت على دوّاسة السّرعة والتفتّ اليه تسأله بعينيك إن كان راضيا عن النّسق الجديد فنظر إليك ولم يعلّق بشيء. وواصلت سيّارتك أكلها للطّريق.

يأكلك النّدم على شفقتك على هذا الرّجل وتوقّفك لإنقاذه من البرد والانتظار وعلى خوفك الذي لا مبرّر له من وحدة الطّريق وطوله ووحشته.

رأيته يمدّ يده إلى حاوية الأوراق فيفتحها ويعبث بمحتوياتها قبل أن يشرع في تفحّص وثائقك الشّخصية ثمّ يحدّق فيك:

- "منتصر البكّوكي"... لا أدري أين اعترضني هذا الاسم؟

ثـمّ حـدّق فـي صـورتك علـى بطاقتـك وفـي وجهك أيضا: لا تبدو لي غريبا... يجب أن أتذكّر أين ومتى رأيتك... ذكّرني أنـت إن لـم أتـذكّر... وجهـك يطـلّ فـي الجرائـد وفـي التّلفـزة إن لـم تخنّـي الذّاكرة...

هممت بالكلام فقال لك :

- ليس مهمّا اسمك وصورتك وأين رأيتك... ولكنّ لقبك هذا أعرفه جيّدا وأعرف الكثيرين من حامليـه... أنـتم مـن قبيلـة "البكّاكـة".. أعرفهـا وأسـمع عنهـا... أنـتم مشـهورون بالبخل الشّديد واحتراما لك، لن أزيد وأقـول أنّكم معروفون أيضا بالجبن... ويقـول عـنكم الذين عاشروكم طويلا إنّ نساءكم خير من رجالكم...
- يا.....
- لحظة.. أنت مولود سنة 1970 وهذا يعني أنّ عمرك الآن أربع وأربعون.

أومأت برأسك أن نعم فلم يعبأ بك وواصل قائلا :

- ولكنّك تبدو متجاوزا الستّين بكثير... عيناك ضيّقتان متعبتان... وجهك أصفر ذابل كليمونة متعفّنة وفي شفتيك اليابستين تشقّقات كأنّها أخاديد وفي رقبتك تجاعيد بلا حصر ولن أزيد على ذلك شيئا.

نظرت إليه بحنق فتجاهل نظرتك ولم يبال بحنقك وقال:

- لست أدري لماذا يصرّ الكثيرون وأنت منهم على ارتداء البدلات الأنيقة وربطات العنق الفاخرة... أترى أنّ الجمال في الشّكل؟ الجمال جمال الرّوح... جمال الفكر... جمال الكلام. قلتها مرارا لأمثالك وأقولها لك الآن أنت أيضا... المغلّفون أجسامهم بالبدلات والرّبطات يخفون داخلهم عقدا وضعفا في الشّخصية وتعاسة لا حدّ لها... لست أدري لماذا أحتقركم كثيرا... ربّما لأنّكم تكرهون البساطة... لأنّكم تنافقون النّاس... لأنّكم

تهـدرون أمـوالكم -إن كانـت أمـوالكم حقّـا - في ما لا فائدة منه.

بلغ غضبك أوجه فأخذت تخفّف سرعتك ناويا أن تتوقّـف عـن السّـير وأن تطلـب مـن رفيـق رحلتـك النّزول. قرّرت ذلك لأنّك أدركت أنّ كلّ ما لديك مـن كلام لن يفي بالردّ على ما بدر من هـذا الرّجـل... انتبه صاحبك إلى هبوط نسق السّرعة ويبـدو أنّـه قرأ نيّتك في التوقّف وفي إنزالـه فوضـع يـده علـى ساقك وضغط بها على الدّواسـة وهو يقول:

- أسـرع أرجوك، الوقت يمـرّ والطّريـق طويـل... أنت محظوظ اليوم لأنّك وجدت مـن يرافقـك ويؤانسـك... الطّريق بلا رفيق مخيف مظلـم كالقبر.

قال ذلك وصوّب نحوك عينيه.

- لسـت أدري لماذا عزمت على السّـفر وأنـت على هذه الحالة من الوهن... انظر وجهـك ... كأنّك لم تنم منذ سـنين... كأنّك لم تأكل

شيئا منذ أيّام طويلة... كأنّ عروقك فارغة من دمها... إن شئت تنحّ وسأمسك بدلا عنك المقود.

تطلّعت إلى وجهك الصّغير في المرآة العاكسة... حاولت أن تتذكّركَ قبل أن يقول هذا الأحمق ما قال لتجري مقارنة وتتثبّت من صحّته....لم تتذكّر وجهك ولم تستطع أن تردّ على الرّجل بأيّ كلام.

- أغلق النّافذة... هواء بارد يتسرّب منها.

ضغطت على زرّ في متناول يدك اليسرى فأسرع البلور يغلق فجوة الهواء.

سكت الرّجل برهة ثمّ أخذ يحكّ أرنبة أنفه ويتأفّف ثمّ أشاح بوجهه عنك وهو يقول:

- رديء جدّا هذا العطر الذي تستعمله... رديء ورخيص ... شممته مرّة ... لا أدري أين ... لولا احترامي لك لقلت إنّني شممته في بيت من بيوت ماخور العاصمة... نعم هو ذاك ... شممته هناك.

ملـت إلـى اليمـين وضـغطت علـى المكـبح وضربت بذراعك المقود بعنف فأسرع الرّجـل يربّت على كتفك ويقول :

- ما بك ؟ امض... نحن في قلب الطّريق، ماذا سيقول عنّا الغـادون والرّائحـون... هيّـا... لا تكن أحمق وواصل بنا الطّريق.

حرّكت رأسك يمنة ويسرة... ضحكت ضحكة لا طعم ولا لون ولا شـكل لها... ربّما منه... ربّما منك... ربّما منه ومنك... وواصلت الطّريق.

جاءك بعد دقيقة واحدة أمر جديد :

- افتح النّافـذة وأنـزل البلّـور بقـدر كـفّ اليـد... يجب أن يدور الهواء ليتسرّب خارجـا عطـرك المغشـوش.

سلّمت أمرك وأعدت فتح النّافذة وبدأت تستمتع ولأوّل مرّة منذ انطلقت بصمت حطّ فجأة على صاحبك.

حطّ الصّمت قليلا.

حطّ بضع دقائق.

دقيقة.

دقيقتان.

ثلاث دقائق .

ثمّ تكلّم رفيقك من جديد :

- قرأت وثائقك ولم أنتبه إلى مهنتك... قل لي ما مهنتك بالضّبط ؟

قال ذلك ومدّ يده إلى هاتفك الجوّال وكان مضطجعا بينكما وكوّن وأنت مندهش تماما رقما أخذ يهاتف صاحبه وهو ينظر إليك مبتسما ويغمز لك بعينيه.

- الو ...أهلا
- .....
- لا تقلقي فأنت تعرفين أنّني رجل أحترم كثيرا مواعيدي... سنبيت معا اللّيلة.
- .....
- لم أركب القطار ولا الحافلة، كلاهما مزعج وبطيء، أنا في سيّارة خاصّة.
- .....

- سوف أخاطبك بمجرّد وصولي.

أنهى مكالمته تلك وانهمك في تكوين أرقام أخرى... خاطب أصدقاء له وصديقات وأقرباء له وقريبات ثمّ أعاد الآلة الصّغيرة إلى مكانها وقال لك:

- سألتك عن مهنتك فلم تجبني ،أهي مخجلة إلى هذا الحدّ ؟

أجبته :

- سائق.

ولم تضف : سيادتك أو حضرتك.

- مزاحك ثقيل، ولكن، لا بأس، ما مهنتك ؟

- وكيل نيابة.

لم يثر نطقك بمهنتك في مخاطبك خوفا ولا اضطرابا ولم يجبره حتّى على التّراجع عن أقواله السّابقة وتعديل سلوكه نحوك.

وكيل نيابة ؟ آاه، أنتم الذين تزجّون بالأبرياء وضعاف الحال في الظّلمات وأنتم الذين

تتقاضون الرّشـوة كلّمـا وجـدتم إليهـا سـبيلا.. الآن عرفت لماذا وجهك كاللّيمونة أصفر ولمـاذا عمرك الظّاهر يجاوز عمرك الحقيقيّ بعشـرين عامـا... ألـم يكـن الأجـدر أن تسـلك سـبيل المحامـاة ؟ المحامـاة مهنـة شـريفة أموالهـا حلال وأجرها عند الله وعند خلق الله عظـيم... المحـامون يُـدخلون علـى العـائلات البهجـة ويقِضّون مضاجع القضاة أمثالك ويعيشـون فـي بـذخ وينـامون اللّيـل هـانئين ولا تبكّـر إلـيهم الشّـيخوخة ولا تصـفرّ وجـوههم وهـم فـي أواسط العمر.

ملـت فـي اتّجـاه أوّل مقهـى صـادفك علـى مشـارف أوّل مدينـة اعترضـتكما منـذ انطلقتمـا. أوقفـت سـيّارتك ونزلـت فنـزل صـاحبك. أغلقـت الأبـواب وترجّلـت... جـذبت مقعـدا وارتميـت فيـه فجذب الرّجل مقعدا وألقى عليـه بجسـده الطّويـل الضّخم... طلبت شـايا فطلـب لنفسـه قهـوة وماء

وعصـيرا وسـندويتشـا... فـرغ كـأس الشـاي ولـم تنهض فوقف يستحثّك على الوقوف.

- هيّـا، أنـا رجـل دقيـق فـي مواعيـدي، ألـم تسمعني منذ قليل أعـد قريبـة لـي بـأنّني سـأكون لـديها قبـل اللّيـل... كـن معترفـا بجميلي في صـحبتك اليـوم وانهـض نكمـل الطّريق معا.

قلت ببرود شـديد وأنت تدير بين أصابعك الكأس الفارغة :

- أتمنّى لك بقيّة رحلة ممتعة... أنا أقصد هذه المدينة. لديّ فيها، هنا... في هذا المقهى موعـد مـع زمـلاء لـي... هـا هـي الطّريـق أمامك... قف على يمينها قليلا... أنت رجل محظـوظ... سـوف يتوقّـف ويحملـك معـه مغفّل مثلي.

اسودّ وجهـه ونظـر إليـك بحنـق ثـمّ ضـرب الكـأس على الطّاولـة حتّـى تنـاثرت علـى وجهـك قطـرات

بقايا قهوته وأمسك القارورة بين يديه وأسرع إلى الطّريق... تبعته بعينيك... رأيته يترصّد السّيارات الفارغة ملوّحا بقارورته ومتقدّما بساقه حتّى يجبر السوّاق على عدم تجاهله... لم ينتظر طويلا... توقّفت سيّارة ففتح الباب وارتمى فيها...

نقدت النّادل ثمن ما تناولتما وعدت إلى سيّارتك... طالعتك وأنت تدخلها حقيبته... انتظرت إلى أن جاوزت مباني المدينة وامتدّ أمامك الطّريق أسود طويلا وفتحت الشّباك ورميتها خارجا... تنفّست الهواء ملء رئتيك وواصلت الطّريق... تقود سيّارتك بهدوء شديد حتّى لا يجمعنك بذلك الرّجل الطّريق ثانية.

نسائيّات

(1)

السّـاعة الثّانيـة بعـد الظّهر...الشّـمس تحـرق الأرض حرقـا والهـواء ميّـت أو يكـاد وحركـة الحـيّ هادئة تماما.

أطلّت "سـليمة" من الشّرفة تنتظر مقدم زوجهـا... رأته يحثّ خطاه وهو يدسّ هاتفه في جيبـه كأنّـه

أنهى للتوّ مكالمة ما ثمّ رأته يتمهّل أمام باب الجارة "سعيدة"... شاهدت الباب ينفتح في الدّقيقة نفسها التي وصل فيها أمامه... وشاهدت جارتها تخرج بشعر منسدل على الكتفين وبزينة واضحة في الوجه و بفستان مفتوح من كلّ جوانبه...والتقطت عيناها الاثنين يرتميان في حضنيْ بعضهما بعضا وشفاههما تلتقي في قبلات محمومة خاطفة...ثمّ ظلّت واقفة في ركن الشّرفة إلى أن دخـــــــلت
جارتها وهي تلتفت وتبتسم وبدأ زوجها يتسلّق درجات السّلم وهو يحكّ شفتيه بيديه ليمحو فم "سعيدة" من وجهه.

حيّته باشّة ومدّت إليه جلبابا أبيض وملابس داخليّة وقالت :

- لا يطفئ حرّ هذا اليوم ولا يمحو عرقه غير الماء البارد... اذهب إلى الماء وارتم تحته قليلا وتعال نتناول غداءنا سويّا.

شكرها واستسلم لها تساعده على نزع بدلته وحذائه وهو يغطّي شفتيه بيده ثمّ ذهب يرتمي تحت الماء.

عندما عاد إليها كانت الأطباق قد ملأت طاولة الغداء.

- اشرع في الأكل فأنت جائع حتما...

قالت ذلك وأمسكت بين يديها طبقا مغطّى واتّجهت نحو الباب.

- إلى أين ؟
- رائحة أكلنا اليوم وصلت إلى دار جارتنا "سعيدة"، سيكون جميلا أن أطعمها منه.

(2)

هي الآن تبكيه بحرقة وتعدّد أمام المعزّين مناقبه.
عشرون عاما وهي تهمّ في كلّ يوم وفي كلّ ليلة أن تلقي عليه نفس السّؤال الذي نبت فيها ولم يبرحها منذ أوّل ليلة لها معه... تهمّ بإلقاء سؤالها ذاك ثمّ تخيّر بعد تردّد أن تجترّه وأن تتآكل من الدّاخل... كان يقرأ في عينيها وفي تردّدها وفي اختلاج حديثها سؤالها المزمن ذاك... ولكنّه لا يملك غير أن يلوذ بالصّمت وبالخجل.
عاشا معا عشرين عاما تحت سقف واحد.
كان عمره خمسين عاما عندما سلّمها له أبوها عربون صداقتـــــه له وعشرته معه.
قبلها تزوّج مرّتين وطلّقته زوجتاه في المرّتين...
كانت تصغره بثلاثين عاما.

اكتشفت خيبتها منذ ليلتهما الأولى.
فتجمّلت بالصّبر أيّاما علّ الغمّة تزول وتمّحي.
ولكنّ الغمّة كانت مزمنة.
فعوّدت نفسها على أن تعيش وحدها معه.
دون أن تدع اليأس يتسلّل إليها.
أدخلت على نفسها ثورات وثورات.
غيّرت تسريحة الشّعر ولونه وغيّرت معه الماكياج والعطر وعدّدت أشكال أناقتها... لبست الطّويل والأطول منه ولبست القصير والأقصر منه... ولبست الضّيق والأكثر ضيقا وقلّدت شهيرات الممثّلات وعارضات الأزياء والرّاقصات...
ثمّ عادت تثور على ثورتها وتعود إلى طبيعتها مكتفية بإثارته بما حباها به الله من فتنة لا كرها للأناقة والزّينة بل خوفا عليه من شكوك قد تتلبّسه .
سألها أهلها عنه فقالت إنّها ظفرت برجل تتمنّاه كلّ النّساء... وسألوها لماذا لم تنجب... فقالت :
-الحمد لله على كلّ حال...

وأشاعت أنّ العيب فيها...
وتسلّلت الى تفاصيلها صديقات مقرّبات فمثّلت باقتدار أمامهنّ دور الزّوجة التي تحظى بإشباع مستمرّ في الكمّ والكيف...
هي الآن تبكيه بحرقة...
ولكنّ موته لن ينهي أزمة السّؤال القائم فيها.
ستظلّ تسأل روحه وصورته المعلّقة في غرفة النّوم وخياله السّاكن في كلّ أرجاء البيت:

- لماذا وقفت ببابي وأنت لا تقدر على إدارة المفتاح في قفله؟

لماذا وقفت ببابي وأنت تدرك ألاّ قدرة لك على اجتياز العتبة ؟
لماذا تزوّجتني لأعيش معك ... وحدي ؟
سيخفّ وقع ذلك السّؤال قليلا ولكنّه سيظلّ يلحّ داخلها...
تودّد إليها وبالغ في اللّطف مديرها في العمل فثارت في وجهه وهدّدته بزوجها وبالقضاء وبمديرهما الأعلى.

قال لها: "سأهبك ما لا يخطر لك على بال ".
فردّت بحدّة: "لا شيء يدعوني إلى ما تدعوني إليه...لديّ زوج قادر على دكّ الجبال."
وراودها جار لها أيّاما مصرّحا بأنّها سلبته لبّه وأنّه مستعدّ لكلّ شروطها فصدّته ونهرته وهدّدته برفع أمره إلى زوجته وإلى كبير الحيّ.
وعاشت وحدها عشرين عاما مع رجل وقف ببابها ولمّا دعته تبيّن لها أنّه عاجز عن اجتياز العتبة.
هي الآن تبكيه بحرقة.
ستحاول أن تنسى الباب...
وتنسى المفتاح...
وتعيش كأنّها لم تعرف الحزن عشرين عاما.
ستحاول ألاّ تذكر شيئا... فقط أن تذكر المرحوم بخير.

(3)

هي الآن أمّ.

هي الآن... بعد عشر سنين من العقم... أمّ.

زارت الأطبّاء حتّى ملّتهم وملّوها وتردّدت على العرّافين والمشعوذين وتمسّحت بأعمدة وثوابيت الأولياء الصّالحين وتوسّلت بالدّعاء وبالتّعاويذ...

ثمّ قرّرت بعدما استقرّ في يقينها أن لا فائدة من كلّ ذلك أن تقف في وجه اليأس وألاّ تستسلم للعقم وأن تعاند نتائج التّحاليل المخبريّة والفحوصات وصور الأشعّة وتصبح أمّا وتنقذ زوجها اللاّئذ منذ عشر سنين بالصّبر وبالأمل وتحوّله من مجنون بصبيان الحيّ والأقرباء والأصدقاء إلى مجنون بأطفال من صلبه.

هو الآن أب.

هو الآن أب رغم عقم زوجته.

رتّبت في ذهنها أربع نسـاء ودعتـه إلـى أن يختـار منهنّ واحدة.

عبثا عاندها.

وثار في وجهها وأقسم أن لا حاجة له بسواها.

قالت له:

أمامك أربع فأشـر علـيّ بواحـدة وتـنحّ جانبـا... أنـا أزوّجك إيّاها.

فردّ عليها:

- ولكنّي لن أفرّط فيك.
- أنا أيضا لن أفـرّط فيـك... سـننفصـل ونعـيش معا... طلّقني ثمّ تزوّجنا.

هي الآن أمّ.

هو الآن أب.

بينهما معا وبين الزّوجة الجديدة بلقيس وحازم وسـناء.

الثّلاثــة أنســوهم مــرارة العقــم وكآبــة الوحــدة وهاجس الانفصال.

الثّلاثة حوّلوا حياتهم إلى جنّة.

هي الآن أمّ.

هي الآن رغم عقمها أمّ لأطفال ثلاثة.

هو الآن أب.

وزوج لامرأتين تحبّانه جدّا.

(4)

كانا معا والتّلفزة بينهما.
يتحدّثان عن الطّقس والعمل وبرامج الأيّام القادمة.
كانا معا يتجاذبان الحديث عندما أحسّت بسكوته وانصرافه عنها وعن حديثهما. جارته في صمته وقلّبت عينيها بينه وبين شاشة التّلفزة. رأته يحدّق بعينين واسعتين جائعتين في ثلاث نساء يشتركن في تقديم حصّة تلفزيّة.
نظرت إليهنّ وتفحّصتهنّ ودقّقت في تسريحاتهنّ وماكياجهنّ وما يلبسن ثمّ انسلّت إلى خارج الغرفة وذهبت تقف أمام مرآة كبيرة..
نظرت.. إليها...
تأمّلت نفسها...

لباسهنّ أجمل وماكياجهنّ أكثر إثارة وشعورهنّ أحسن تسريحا.

غابت نصف ساعة كامل ثمّ جاءته تتهادى...

تعمّدت أن تطرق الباب ...

ثمّ دخلت واندسّت إلى جانبه في الفراش دون أيّ كلام...

هو أيضا لم يقل شيئا...

ولكنّه مدّ يده إلى التّلفزة فأطفأها والتفت إليها وهو يتذمّر من ذلك البرنامج النّسائي ومن مقدّماته الثّلاث وذوقهنّ الرّديء في تسريحة الشّعر وطريقة الماكياج ونوع اللّباس.

اسمعيني جيّدا

فتحت حاسوبها.

أدخلت اسمها وكلمة السرّ.

ضغطت على دائرة الرّبط بالفايسبوك.

فانكشف أمامها عالمها الافتراضيّ وبدأت تطالع جريا آخر الأخبار وآخر التّعليقات وتشاهد آخر ما امتلأت به الشّاشة من صور منذ أغلقت جهازها هذا الصّباح.

فجأة ظهر بالأحمر الرّقم "1" في خانة الرّاغبين في طلب صداقة جديدة.

ضغطت على الرّقم ولم تتردّد في منح مرسله صداقتها.
ثم عادت تقرأ ببطء وتعلّق بالتّفصيل على ما امتلأت به صفحتها وصفحات أخرى خلال هذه السّاعات التي تغيّبت فيها عن حياتها الافتراضية .
كتبت دعاء بالرّحمة أسفل خبر وفاة الشّاعر الكبير "أنسي الحاج".
وتمنّت لابنة صديقتها بمناسبة عيد ميلادها العشرين طول العمر ودوام الفرح.
وكتبت BRAVOOOOOOOO تحت خبر مفاده قبض أهالي مدينة مجاورة على إرهابيّ واقتياده مكبّلا في سلاسله إلى منطقة الأمن الوطني.
وعبّرت في بضعة سطور عن ابتهاجها وافتخارها بباحث تونسيّ توصّل إلى تصنيع دواء سيقضي نهائيّا على مرض السّكري.
وكتبت فرحا بإصدار أدبيّ جديد لواحد من أصدقائها: كلّ كتاب جديد هو طعنة أخرى في جسد التخلّف والجهل. مباااااااااااارك.

وعلّقت على الفيديو الذي وُضع على صفحتها وعلى صفحة مؤسّستها المشغّلة تسجيلا لحفل التّكريم الذي أقيم منذ ساعات على شرف مديرهم المحال اليوم إلى شرف المهنة : "سنفتقدك كثيرا سي "فارس". هذا التّكريم هو أدنى واجباتنا نحوك. لتنعم بالرّاحة بعد تعبك الطّويل وليمتّعك الله بالصّحة ولتنعم بك العائلة أخيرا".

شاهدت الفيديو كاملا... واستمعت إلى كلمة السّيّد "فارس" يثني على اعترافهم بالجميل... وشاهدت نفسها توزّع على المحتفلين أكواب العصير وكؤوس الشّاي.. وشاهدت خطيبها "أحمد" يلقي في الجميع كلمة يستعرض فيها مسيرة المدير المكرّم ويشيد فيها بخصاله ويرجو له رحلة ممتعة مع سنوات التّقاعد.

سمعت "سيّدة " باب الدّار يفتح ثمّ يغلق بسرعة فأدركت أنّ أبويها وأختها عادوا من حفل الزّفاف القريب الذي دُعوا إليه... نهضت... سلّمت

علـيهم.. سـألتهم باقتضـاب عـن انطباعـاتهم ثـمّ عـادت إلـى غرفتهـا تتبـادل التّحايـا وكلامـا عاديّـا ممجوجا مع بعض الاصدقاء.

ثمّ انتبهت إلى نافذة جديدة فتحت للتوّ أمامها وأدركت سريعا انّها لهذا الذي طلب الصّداقة منذ حين.

حيّاها وشكرها على قبولها الدّعوة... وبدأ الحديث ينسـاب بينهمـا... فتـى مـن بلـد عربـيّ... مثقّـف جدّا... ثـريّ جـدّا... لبـق فـي الحـديث... جـريء لا يتردّد في طـرق المواضـيع السّـاخنة. شـدّها إليـه كثيرا... قاومته قليلا... ثمّ بـدأت تنهـار وتفسـح لـه المجال ليتسلّل إلى تفاصيلها.

- اطلبي منّي ما تشائين ... أنا طوع أمرك.

لم تتجرّأ ولم تطلب.

ولكنّه ألحّ.

- لا عليك. اكتبي عنوانـك وسـتصـل إلـى بـاب دارك هديّة محترمة.

كتبت في غفلة من نفسها عنوانها وأضافت رقم هاتفها وقالت له:

- شكرا على كرمك.

ثم بدأ يستدرجها نحو أشياء أخرى.

تمنّعت.

هدّدت بمقاطعة الحوار وبإلغاء الصّداقة.

فترجّاها وبدأ يقنعها أن لا عيب في لذّة افتراضيّة تروي العطش وتنسي التّعب ولا يطّلع عليها أحد... ثمّ بدأت تلك النّافذة الفايسبوكية تتحوّل إلى غرفة نوم شبه زوجيّة... فتاة محترمة جدّا من عائلة محافظة جدّا تحبّ خطيبها جدّا تخرج عن طورها وتقع تحت تأثير اللّيل والوحدة والإغراء والوعود بالهدايا فتشرع في عرض تفاصيلها على صديق افتراضيّ مغر ولبق قال إنّه مثقّف وثريّ ويحترم المرأة جدّا.

- الآن يكفي، قالت كالآمرة /كالنّادمة على ما انساقت إليه/ كالمستفيقة من خدر سرى فيها وسيطر على وعيها /كالمنتبهة من

سكرة أطارت عقلها حينا من الوقت/كمن فقد ساعة إرادته ثمّ عاد يمسك بزمام الأمور .

- لك ذلك.
- سأغادر الآن... الوقت تأخّر كثيرا وأخشى أن لا أنهض باكرا صباح الغد.
- قبل أن تغادري. ..
- نعم صديقي...
- لست صديقك ... انظري...

ووضع بين عينيها الفيديو كاملا...

شاهدت لحمها معروضا بتفاصيله ...

فتخيّلته معروضا بعد حين أمام عيون الجميع...

وقرأت كلاما كانت تكتبه...

وتصوّرته متداولا بعد حين بين عموم المتصفّحين...

شهقت...

نطّ قلبها حتّى خالتْه سيرتمي على لحمها المعروض أمامها عاريا في تسجيل مطوّل واضح.

كتبت بإصبع مختلج :

- أَر ررر أررررر جووووووك .

فردّ سريعا :

- اعذريني، لا خصومة شخصيّة بيني وبينك ولم أفعل ما فعلت شماتة ولا نكاية ولكنّني أقوم بعملي.. هذا هو عملي... لم أفعل شيئا سوى أنّني كنت أشتغل لأعيش...

لم يكن أمامها غير سؤال واحد لم تتردّد في أن تكتبه بسرعة:

- ما ذا تريد ؟ ما المطلوب منّي ؟ اطلب ما يرضيك وسأفي بوعدي وكن رجلا وامح مـــــــــــــا سجّلت ولا تنشره ولا تفضحني .
- الآن يمكن أن نتّفق فاسمعيني جيّدا.
- حاضر
- .....
- حاضر

- .....
- حاضر
- .....
- حاضر
- .....
- حاضر.

شكرا آنستي

وصلت محطّة القطار باكرا.

باكرا جدّا.

قبل موعد الانطلاق بثلاث ساعات كاملة.

وقبل أن يفتح قاطع التّذاكر شبّاكه.

وقبل أن يبدأ في التّوافد على المكان المسافرون.

لم يكن في كلّ المحطّة وساحتها إلاّك.

هكذا أنت.

أو أنت هكذا دائما.

أو تلك هي إحدى عاداتك السّيئة.

أو ذلك عيب فيك لم تستطع أن تتجاوزه.

تــدرك جيّــدا أنّ الإدارة التــي ستقضــي منهــا شــأنك تفـتح أبوابهـا فـي تمـام الثّامنـة والنّصـف صـباحا غيـر أنّـك تصـل إليهـا قبـل ذلـك بسـاعة علــى الأقــلّ وتظــلّ طــوال وقــت الانتظــار تــذرع ســاحتها جيئــة وذهابــا ملتفتــا مــن حــين لحــين إلــى بابهــا الكبيــر وإلــى شــبابيكها الكثــر متوقّعــا دائمـا أن يكـون كـلّ مـن يمـرّ أمامهـا واحـدا مـن موظّفيها جاء ليشرع في وجهك الباب.

تــدرك جيّــدا أن لا ســبيل إلــى أن تبــدأ عملــك قبــل أن ينضــمّ إليــك زمــلاؤك ولكنّــك تبكّــر إليــه وتظــلّ تعــيش الانتظــار حانقــا علــى نفســك

الأمّارة بالتّبكير وعلى ساعة دماغك المصرّة دوما على أن تسبق المواعيد المتعارف عليها.

يقال لك إنّ طائرتك ستقلع في تمام الرّابعة عصرا وتقرأ ذلك مرارا على تذكرتك بوضوح ولكنّ قوّة ما تدفعك إلى أن تكون بالمطار قبل موعدك ذاك بساعات طويلة.

داء لا دواء له.

طبع لم تستطع أن تتلافاه.

كثيرون من أهلك وأصدقائك يحسدونك عليه ويرونه ميزة فيك فيما آخرون يلومونك عليه ويرون الأمر مضيعة للوقت وتعكيرا لمزاج الآخرين وضربا من الشّذوذ.

محفظتك التي تحوي أوراق هويّتك وكتابا وكنّشا وقارورة ماء وأقراص صداع وضعتها بين ظهرك وظهر المقعد الأخضر الطّويل وحقيبتك أحكمت لفّ ساقيك حولها.

وظللـت تقـرأ مواعيـد انطـلاق وصـول القطـارات على السّبورة المقابلة.

كنـت هكـذا ... تقلّـب عينيـك بـين السّـبورة اللّامعـة تقـرأ فيهـا المواعيـد وسـاعتك تتفقّـد فيهـا تقـدّم الوقـت ... كنـت هكـذا عنـدما قطـع عليـك وحـدتك فـي المحطّـة الواسـعة شـابّان دخـلا يتأبّطـان ذراعـيْ بعضـهما ويرفعـان أصواتهما بكلام كالغناء.

... نظـرا إليـك... إلـى حقيبتـك بـين سـاقيك... إلـى محفظتـك وراء ظهـرك ...إلـى جيوبـك ...إلـى بـدلتك وربطـة عنقـك... قـرآ علـى وجهـك خوفك ووحدتك وقلقك ...

لا أحد منهما ألقى عليك التّحية.

دفعـك حـذرك الـذي تحـوّل إلـى هلـع إلـى أن تحيّيهمـا بصـوت مسـموع واضـح محنيـا رأسـك ومبتسما ولكنّهما لم يهتمّا بذلك.

وعـــادت عيناهمـــا تحطّـــان علـــى أناقتـــك ومحفظتك وحقيبتك ...

انكمشـــت وتصـــنّعت المســـكنة ضـــاغطا بكتفيـــك علـــى ظهـــر المقعـــد الخشـــبيّ الأخضـــر وبســـاقيك علـــى الحقيبـــة وبـــدأ خيالـــك يســـتعدّ لإطـــلاق عبـــارات وجمـــل دفـــاع ســـتحتاجها إن هـــمّ بـــك الإثنان أو أحدهما.

ستقول لهما :

"لـيس فـي الحقيبـة سـوى بدلـة وأدوات نظافـة وبضـع كتـب وأدويـة رأس ومعـدة وأرق ولـيس فـي المحفظـة غيـر مـاء وقلـم وأوراق شخصـيّة ..."

وستحاول أن تجهش بالبكاء.

سـتقول لهمـا إن أصـرّا عليـك وارتعـدت أطرافـك مـن عضـلاتهما المتينـة والشـرّ الـذي فـي

صـوتهما ونظراتهمـا أنّـك تمتطـي القطـار إلـى العاصمة لتطيـر منهـا إلـى بلـد عربـيّ تحضـر فيـه ممـثّلا عـن المثقّفـين ملتقـى عربيّـا حـول الأدب والسّياســة وســتؤكّد لهمــا أنّ هــذه الفرصــة لا تتوفّر دائما ولا تتكرّر أبدا.

بدا لك دفاعك خاويا.

بـدا لـك فاقـدا لكـلّ تـأثير علـى هـذين الشّـابين اللّــذين يبــدو أنّهمــا نــذرا حياتهمــا للعــيش بالسّرقة والتّرفيه بالنّهب والمتعة بمتاع الغير.

ثـمّ ارتفعـت درجـة خوفـك عنـدما اقتـرب منـك الإثنان وعيناهما على جيوبك...

أحاطا بك ...فانكمشت.

لـم يكـن بحوزتك...كـأس شـاي مـثلا فتعرضـه عليهمـا... ولـم تكـن لسـوء الحـظّ مـدخّنا إذا لوضعت سجائرك بين شفاههم.

قـرأت الوقـت فـي معصـمك ثـمّ أسـرعت تـدسّ يـدك فـي جيبـك مخافـة أن يـتفطّن إلـى سـاعتك أحدهما.

دبّـت يـدك إلـى جيبـك الآخـر تخـرج منـه جوّالـك ثـمّ سـرعان مـا أعادتـه إلـى مخبئـه مخافـة أن يختطفـه منـك واحـد مـن هـذين المحيطـيْن بـك القابضيْن على أنفاسك.

رأيت الذي على يمينك يلتفت وراءك.

ورأيـت الـذي علـى يسـارك يرسـل عينيـه إلـى حقيبتك وإلى ذبولك واصفرارك وارتعاشك.

ورأيتهمـا معـا يتبـادلان نظـرات فهمـت منهـا أنّ ساعة الهجوم عليك وعلى أمتعتك قد أزفت.

السّاعة كانت الخامسة عصرا.

وقطـارك الـذي لـم يصـل بعـد سـينطلق نحـو العاصمة بعد التّاسعة بربع ساعة.

والمحطّة خاوية.

والشّبابيك مغلقة.

لا عــون تنظيــف جــاء لإفــراغ الحاويــات ومســح الأرضيّة.

لا عــون أمــن جــاء يتفقّــد المكــان ومــا فيــه ومــن فيه.

لا موظّــف مــن جماعــة المحطّــة فــتح شــبّاكه أو أعلن عن وجوده وراءه.

لا مســافر آخــر مصــاب بــداء التّبكيــر جــاء يجــرّ حقيبتــه وينتظــر معــك السّــاعات الطّــوال موعــد انطلاق القطار.

لا بائع متجوّل جاء يعرض بضاعته.

لا

لا

لا

تفقّـدت جوّالـك وضـغطت علـى محفظتـك وزدت من لـفّ سـاقيك حـول الحقيبـة ثـمّ رفعـت رأسـك تجيل عينيك بين الإثنين.

كانت عيناهما تتبادلان نظرات أخرى !!!

نظرات جديدة !!!

نظرات مختلفة !!!

نظـرات يقـول فيهـا كـلّ واحـد لصـاحبه : انظـر إلى باب الدّخول.

تبعـت إشـارتهما والتفـتّ أنـت أيضـا إلـى البـاب فـ.....زال خوفـك بمجـرّد مـا وقفـت عينـاك علـى القادم.

زال كلّ الخوف الذي كان فيك.

فرجت ساقيك،

وأرحت محفظتك من ضغط كتفيك،

وتركـت جوّالـك يرتـع فـي جيبـك بـل إنّـك أخرجتـه وبدأت تقلّبه بين يديك وتبتسم.

تركـك الإثنـان وهمـا يبتسـمان أيضـا وأسـرعا فـي اتّجــاه الفتــاة القادمــة يتــودّدان إليهــا ويعرضــان عليهــا حمــل حقائبهــا ... ويســتقبلانها بلطــف مبالغ فيه.

نهضـت مـن مكانـك الـذي كـدت تلتصـق بـه خوفـا واتّجهــت أنــت أيضــا إليهــا ومــددت إليهــا يــدك وأنت تقول:

- شكرا آنستي .

حلاّق الشّعب

هـو أوّل مـن يبكّـر إلـى وسـط المدينـة. يصـل دكّانـه قبـل الجـزّارين وقبـل بـائعي الخضـر وفـي وقـت واحـد مـع أصـحاب المقـاهي وصـبيان دكاكين الخبز.

يُعمـل مفتاحـه الكبيـر فـي القفـل، يعالجـه قلـيلا ثـمّ يـدفع البـاب ويـدخل مبسـملا ومسـتعيذا بـالله مـن شـياطين الجـنّ والإنـس داعيـا لنفسـه بيسـر الـرّزق وكثـرة البركـة... يتنـاول المكنسـة

فيمرّرهـا علـى أرضـيّة القاعـة قبـل أن يتقـدّم خطـوات ليكـنس بهـا سـاحة الـدّكّان الأماميّـة... ثـمّ يعـود فيتفقّـد أدوات عملـه ويلمّـع مرايـاه ويفـتح جهـاز الرّاديـو الكبيـر ويجلـس مقـابلا البـاب يـردّ علـى تحايـا الصّـباح ويتـابع فـي هـدوء دبيـب النّهـار الجديـد فـي انتظـار أن يهـلّ حرفـاؤه أو أن يبـدأ فـي التّقـاطر نـدماؤه القـارّون الـذين اتّخـذوا من محلّه مجلسهم اليومي.

-صباح الخير علاّلة.

- أهلا. صباح النّور حامد.

- كيف أنت اليوم ؟

- بخيـــر. رغـــم حـــرارة طقـــس البارحـــة وانتشار النّاموس وكثرة الضّجيج.

- أمقـــت الصّـــيف لهـــذه الأســـباب الثّلاثـــة. الحـــرارة والنّـــاموس والضّـــجيج. أنـــا لا أحـــبّ مـــن الصّيف إلاّ غلاله.

قال الرّاديو :

- تسـجّل درجـات الحـرارة اليـوم وخـلال اليـومين القـادميْن ارتفاعـا يتـراوح بـين درجتـيْن وثلاث درجات...

- سـمعت حامـد ؟ هـا هـي الحـرارة سترتفع.

- اللّطف.

- نهاركم سعيد يا جماعة.

- أهلا سعيد. اِجلس.

- لـديّ بعـض المـآرب. هيّـا، هـذّب لـي وجهي قليلا.

جلـس سـعيد علـى الكرسـيّ الأسـود الـوثير واتّكـأ برقبتـه إلـى الـوراء قلـيلا وتـرك علاّلـة يرغـي الصّـابون علـى وجهـه ثـمّ يمـرّر عليـه موسـاه... تأمّـل وجهـه بعـد أن مـرّر عليـه الحـلاّق المنشـفة فانتبـه إلـى شـعيرات بيضـاء تتخلّل شاربه.

- علاّلة، أرأيت تلك الشّعرات البيضاء ؟

- نعم رأيتها.

- حـــاول أن تجتثّهـــا. إنّهـــا تفســـد ســـواد الشّارب.

ضــحك علاّلــة وجــاراه فــي الضّــحك حامــد وقالا معا :

- بل لعلّها تزيده وقارا !

- أنــا لا أبحــث عــن الوقــار. أنــا أبحــث عــن الشّباب الدّائم. هيّا يا علاّلة، جد لي حلاّ.

- لــديّ مــرهم لتســويد الشّــعر، هــل تريــد أن تجرّبه ؟

- وهل جرّبته أنت فيك أو في غيرك ؟

- جرّبته. نتائجه باهرة.

- ســـتعود شـــابّا وســـتلاحقك الفتيـــات وستصبح محطّ كلّ الأنظار.

- هههههههه

- هيّـــا إذن، هـــات مرهمـــك ولمّـــع بـــه شاربي كلّه.

أغمــض ســعيد عينيــه ...ولمّــا أحــسّ أنّ علاّلــة أنهـــى عملـــه فتحهمـــا... فهالـــه مـــا رأى...

اختفــت تمامــا الشّــعرات البيضــاء وازداد ســواد شاربه لمعانا.

شــكر حلاّقــه كثيــرا وأدخــل يــده فــي جيبــه ثــمّ أخرجهــا ونقــده أجــرة مضــاعفة ... وعــاد إلــى المــرآة... تأمّــل وجهــه... مــرّر ســبّابته وإبهامــه علــى شــاربه الجديــد... ابتســم... ثــمّ اســتأذن صاحبيه وانطلق خارجا.

قال الرّاديو بصوت حزين :

- جــدّ صــباح اليــوم تفجيــر عنيــف بمدرســة للبنــات بجنــوب إيطاليــا وقــد تزامنــت العمليّــة مــع موعــد الــدّخول إلــى الأقســام وأســفرت عــن مقتــل ثمــاني فتيــات وجــرح مــا لا يقــلّ عــن عشرين أخريات.

- يا لطيف !

- صباح الخير.

- أهلا. يا ستّار.

- ماذا حدث ؟

- تفجيـر بمدرسـة بجنـوب إيطاليـا يـودي بحيـاة ثمـاني بنـات ويتسـبّب فـي إصـابة عشرين فتاة أخرى.

- يا لطيف... أووووه. ما ذنب البنات ؟

- نعم . ما ذنب البنات.

- أكـاد الآن أرى أمّ كـلّ واحـدة مـن الفتيـات وقـد نهضـت هـذا الصّـباح بـاكرا وأعـدّت الفطـور وأيقظـت ابنتهـا وأشـرفت علـى هنـدامها ولمجتهـا ومحفظتهـا وشـعرها وعطرهـا... أكـاد أراهـا ترافقهـا إلـى الحافلـة أو توصـلها بنفسـها إلـى المدرسـة ثـمّ تقبّلهـا وتلـوّح لهـا بيـدها... وتمضي.

- ثـمّ تخيّـل أيّ أمّ مـنهنّ الآن وقـد بلغهـا خبـر الكارثـة... تخيّـل أيّ أب شـاهد ابنتـه قبـل الثّامنـة ترتـع كالغزالـة... تخيّلـه سيشـاهدها الآن أو بعـد حـين أشـلاء حمـراء ممزّقـة أو لحمـة باردة في المستشفى.

- اللّطف.

- وأولئـــك اللاّتـــي أصِـــبْن، ألـــن يعشـــن بصدمات نفسيّة وبإعاقات بدنيّة ؟

- تلك أيضا كارثة.

- نهاركم طيّب.

- أهلا سي مختار.

اتّجـــه ســـي مختـــار نحـــو الكرســـيّ الأســـود فتنـاول علاّلـة منـديلا أبـيض وأدخلـه فـي ذراعيـه وربطـه مـن الخلـف وبـدأ يفـرك لـه شـعره ثـمّ يُعمل مقصّه...

- سمعتم ما حدث البارحة ؟

- لا سي مختار. ماذا حدث ؟

- جماعـــة هاجمـــت الحانـــات وعنّفـــت مـــن كـان فيهـا وكسّـرت القـوارير حتّـى قـال قائـل إنّ الخمـور سـالت فـي الشّـوارع أنهارا.

- هل تمّ إيقافهم ؟

- لا.

- ومـن أيـن سـيأكل هـؤلاء الـذين قطعـت أرزاقهم ؟
- تقصد عمّال الحانات وأصحابها ؟
- نعم.
- أعـرف أنّ كثيـرين مـنهم مضـطرّون إلـى ذلـك. صـديق لـي يشـتغل فـي حانـة أكّـد لـي مـرارا أنّـه لـن يتـردّد فـي تركهـا بمجرّد ما يحصل على أيّ شغل آخر.
- أنا أفكّر فـي أمـر آخـر. الـذين كـانوا يرتـادون الحانـات، هـل تعرفـون مـاذا سـيفعلون الآن ؟
- سيقلعون عن تناول الخمر.
- لا. سـيحوّلون بيـوتهم إلـى خمّـارات وستقوم القيامة داخل العائلات.
- يا لطيف.
- صحّة ليك.
- يعطيكم الصّحة.

جلس سي مختار إلى جانب الجماعة وأشار بيده إلى نادل المقهى المقابل للمحلّ ليجلب له نارجيلته وقهوته المعتادتيْن... وأمسك علاّلة مكنسة وبدأ يسوق بها ما تجمّع من شعر على الأرضيّة إلى ركن من أركان الدّكّان في انتظار أن يعبّئه في آخر النّهار في كيس بلاستيكيّ ويضعه في حاوية الشّارع.

طرق الباب شابّ عشرينيّ تغطّي وجهه لحية بدأت تنمو وتتدلّى على صدره حقيبة مفتوحة تتراصّ فيها قوارير عطر بحجم الأصابع وأعلام صغيرة وأقلام وحافظات نقود وحافظات أوراق وحاملات مفاتيح...

أذن له الجماعة فدخل وسلّم وقدّم نفسه :

- أنا أخوكم من سوريا... أطلب مساعدة.

مـدّ كـلّ مـنهم يـده إلـى الحقيبـة فأخـذ شـيئا... ثـمّ نـاول الشّـاب مبلـغ الـدّينار والنّصـف الـذي طلب.

قالوا له :

- اجلـس حـدّثنا قلـيلا. كيـف وصـلت إلينـا وماذا جرى فيكم ومتى تزول غمّتكم.

قـالوا ذلـك وألحّـوا فيـه ولكنّـه اعتـذر مـتعلّلا بجريـه وراء الخبـزة، خبزتـه فـي تـونس وخبـزة من بقي من أهله حيّا في سوريا.

مـصّ مـن نارجيلـة سـي مختـار قلـيلا... ثـمّ انسحب ومضى يطرق أبوابا أخرى.

- السّلام عليكم يا جماعة.
- وعليك السّلام.
- البركة فيكم.

وقفوا سائلين معًا :

- في من ؟
- في وردة الجزائريّة.
- ماتت ؟

- الآن. الآن أعلن الخبر.

- يووووه.

- الله يرحمها.

- لن يعوّضها أحد.

- كانت صرحا... فهوت.

- هـا نحـن نخسـر قامـة أخـرى مـن قامـات العرب.

مـدّ علاّلـة يـده إلـى إبـرة المـذياع وحوّلهـا نحـو الجزائـــر... فنطقـــت وردة : الـــوداااااع. ثـــمّ فسحت الإذاعة المجال للقرآن الكريم.

- يا جماعة لديّ اقتراح.

- أعرفـه. نعـرف أنّـك محـبّ لـوردة عاشـق لصـوتها وسـتقترح علينـا أن نتحـوّل إلـى الجزائـر لحضور جنازتها.

- لـــيس ذاك. ســـأقترح أن نجهّـــز محـــلّ علاّلـة بجهـاز تلفـزة وآلـة التقـاط. ألسـنا نقضـي فيـه أكثـر ممّـا نقضـي فـي بيوتنـا أحيانـا ؟ تعـالوا

نشـــتري شاشـــة ونركّزهـــا هنـــاك فـــوق البـــاب حتّى لا يفوتنا خبر ولا صوت ولا صورة.

- السّـــلام علـــيكم. أنـــا آتـــيكم بهـــا قبـــل أن تجمعـــوا ثمنهـــا. اللّيلـــة تصـــلني مـــن الجزائـــر شـــاحنة معبّـــأة بـــأجهزة تلفـــزة وتبريـــد وتكييـــف وغســـيل وطـــبخ ...ســـأوفّر لكـــم جهـــازا وأقسّـــط لكم ثمنه.

- اتّفقنـــا. وتكفينـــا واحـــدة مـــن الحجـــم المتوسّط.

- صباح الخير .

ردّ الجماعة بصوت واحد :

- صباح الورد .

وقفـت بالبـاب علـى اسـتحياء ... لـم تجـرؤ علـى الـدّخول ولـم تـزد علـى إلقـاء التّحيّـة كلمـة. خطـا نحوها علّالة وسألها :

- تفضّلي سيّدتي . هل تأمرين بشـيء؟

أحسّـت أنّ الطّفـل الـذي يرافقهـا سـيفلت منهـا فشـدّت علـى يـده وتقـدّمت إلـى داخـل الـدّكّان.

امـرأة أربعينيّـة يغطّيهـا جلبـاب أسـود ...علـى كتفهـا حقيبـة يدويّـة وبيـدها طفـل لا يجـاوز الثّالثـة مـن العمـر ... عيناهـا سـوداوان واسـعتان وعلـى وجههـا آثـار تعـب وضـنك وجـوع وأرق. حيّـت الرّفـاق مـن جديـد وقـدّمت نفسـها :

- أخـتكم مـن سـوريا وهـذا جـواز سـفري ... دخلـت تـرابكم البارحـة عبـر الحـدود الجزائريّـة ...قتلـوا زوجـي وابنتـي البكـر وهجّـت عـائلتي فتركـت الـبلاد وجئـت أبحـث لـي عـن مسـتقرّ هنا.

تبـادل الجماعـة النّظـرات... تمتَمـوا بكـلام لـم تسمعه .. ثمّ قالوا لـها :

- كلّنـا متّفقـون علـى أن نؤويـك وابنـك ...سنستضـيفك بالتّـداول وسـتظلّين بيننـا إلـى أن تملّي الإقامة بيننا.

غلبهـــا البكـــاء فلـــم تســـتطع أن تشـــكرهم ...أمسـكت وجهها بـين كفّيها ثـمّ رفعـت رأسـها إلى السّماء تحمد اللّه.

نهض حامد....التفت إليها ثمّ قال :

- بيتـــي قريـــب جـــدّا ...انتظرينـــي لحظـــة ... سأعود بزوجتي لاصطحابك.

تتبّعـــه الجماعـــة بعيـــونهم إلـــى أن غيّبـــه الـنّهج...ثمّ ظلّـوا ينتظرونـه صـامتين إلـى أن عـاد ... أشـــار علّالـــة إلـــى الضّـــيفة أن تتحـــرّك فـــي اتّجـــاه حامـــد وامرأتـــه فابتســـمت وودّعـــتهم وانطلقـــت تجـــري شـــادّة بيـــدها علـــى طفـــل الثّلاث سنوات ...

نظـر رفـاق محـلّ الحلاقـة إليهـا وإلـى بعضـهم ولـــم يعلّقـــوا بكلمـــة ... وبـــدؤوا ينســـحبون متمنّـين لعلاّلـة شـاهية طيّبـة ومتواعـدين علـى اللّقاء مجدّدا بعد العصر...

نـــادى الحـــلاّق نـــادل المقهـــى ليســـتعيد نارجيلتـــه...نظر إلـــى السّـــاعة الحائطيّـــة المنتصـبة فـوق المـرآة الكبيـرة... لا يـزال وقـت الغـداء بعيـدا... طلـب كـأس شـاي أخضـر وجلـس مقـابلا الشّـارع منتظـرا أن يطـرق بابـه حريـف جديـد أو أن يجيـئ لمؤانسـته صـديق حمـيم... ومـن الرّاديـو كـان مـذيع ومذيعـة يتـداولان علـى تقليـب ذكريـات المرحومـة وردة وبـثّ مقـاطع من أغانيها.

salehymabrouki@gmail.com

الغول

لا حديث في كلّ المدينة هذه الأيّام إلاّ عن هذا الغول الذي يظهر للنّاس في الشّوارع وفي الدّيار وفي مباني الإدارات وفي الجبال والغابات ويفتك بكلّ من يقع بين فكّيه.

غول قال كلّ الذين رأوه وقال الذين سمعوا عنه إنّه متلوّن كالحرباء سريع الحركة يتنقّل كالرّيح من جنوب المدينة إلى شمالها ومن غربها إلى

شرقها ومن وسطها إلى أحوازها بسرعة حيّرت الأهالي وأربكتهم وأرعبتهم.

تداول الأهالي منذ شهر خبر هجوم الغول على مجموعة من الحرّاس كانوا يرقبون الطّريق وقتْلهم وتذبيحهم ففتّشوا عنه في كلّ تفاصيل المدينة دون أن يقفوا له على أثر.
وتداول شهود عيان بعد ذلك بأيّام قليلة خبر حادثة تنكّر الغول في زيّ حرّاس المدينة وانتصابه بالطّريق وفتْكه ذات ليلة بمجموعة من المارّة وافتكاكه ممتلكاتهم وسطوه على جيوبهم.
وفتّشت المدينة عن هذا الذي يشرب من دمها وشدّدت التّفتيش فلم تمسك بأيّ أثر.
وهزّ الجميع ذات صباح خبر مفاده أنّ الغول نهض وأفطر ثمّ اتّجه إلى أحد الأحياء وترصّد واحدا من كبار رجال المدينة ولمّا أبصره خارجا ظلّ يطلق الرّصاص باتّجاهه إلى أن اطمأنّ إلى موته ثمّ أسرع بالاختفاء.

حلّقـت طـائرة علـى علـوّ ضـعيف وأطلقـت كـلاب مدرّبة في الشّـوارع والأنهج والأزقّة والدّيار الخاليـة والغابات القريبة وانتشر السّكان والحرّاس في كلّ مكان ولكنّ الغول ظلّ عصيّا على الأعين.

ولم يكد أهل المدينة يفيقون من صدمتهم تلك في فقدان واحد من كبارهم حتّى عاد الغول فقتل من كبرائهم كبيرا آخـر ... واحـدا آخـر ترصّـده وهـو يغادر داره صباحا ليبدأ يومه الجديد...

فـاض علــى الخلــق الغضــب وخرجــوا صــغارا وكبارا... خرجوا جميعا يهتفون بموت الغول ويحثّون حرّاس المدينة وبعضهم بعضا على تسريع البحـث وقتله قبل أن يقتل آخرين منهم...

وقيل بعد ذلك كلام كثير...

قيـل إنّ الغـول كـان يـوم خـروجهم وغضـبهم ذاك متنكّرا يسير بيـنهم بتـؤدة ويهتـف مـع الهـاتفين : الموت للغول .

وقيـل إنّـه ظهـر مـع الـذين التقطـتهم التّلفـزات ليتحدّثوا عمّا فعل بهم الغـول وعـن غضـبهم وعـن تصـميمهم علـى ملاحقتـه والقـبض عليـه حيّـا أو ميّتا... وقيل إنّه كان يتابعهم مـن حيـث يـراهم ولا يراه منهم أحد ويرقـب غضـبهم ويسـمع أصـواتهم وسبابهم ووعيـدهم ويقـرأ لافتـاتهم ضـاحكا هازئـا كأنّه لم يقتل مـنهم أحـدا وكأنّـه لـن يقتـل آخـرين وكأنّهم لا يبحثون عنه لقتله.

وتتبّع حرّاس المدينة ومتطوّعون آثار الغول في كلّ مكـان... بلـغ مسـامعهم أنّـه متحصّـن بالغابـات القريبـة فشـدّدوا عليـه الحصـار زمنـا ولكـنّهم لـم يظفروا به أبدا... قال الحكماء منهم: لا حـلّ أمامنـا سوى حرق الأشجار فلنضحّ بالاخضرار من أجل أن لا تحمرّ الأرض... أمطروا الغابة نـارا حتّـى تفحّمـت ومكان تلك الأشجار الخضراء العاليـة لـم يعـد يـرى غير مساحات سوداء داكنة...

قـال الجميـع يومهـا: لا شـكّ الآن فـي أنّ الغـول احترق حتّى أصبح فحما أو رمادا.

صحيح أنّنا لم نظفر به حيّا لنفتح رأسه ونتّبع خيوط أفكاره... ونقرأ لماذا فعل ما فعل... وماذا كان ينوي أن يفعل ... ولكنّ المهمّ أنّنا قطعنا دابره وأرحنا منه الخلق وأنّ المدينة ستعود إلى بشاشتها وأنّ محبّيها سيتوافدون عليها من جديد.

قالوا ذلك وفرحوا أيّاما طويلة ...

ولكنّ الغول عاد يضرب من جديد.

تنكّر في لباس مواطن عادي جدّا واكترى له دارا واستقرّ بها وعاش شهورا بين أهل ذلك الحيّ لا شيء يشي بأنّه الغول وبأنّه غير عاديّ وبأنّه مختلف عن بقيّة سكّان الحيّ إلى أن تسرّب إلى علم النّاس أنّ داره تعجّ بأسلحة فتّاكة فجاءت تحاصره قوّة لا قبل له بها ... ولكنّه كالرّيح راوغ تلك القوّة وتسرّب خارج محيط الخطر.

وأفاق سكان المدينة ذات صباح على لافتات ملصقة بالأبواب والجدران ومنتشرة في الأنهج

والشّـوارع ومتسلّلة عبر شـقوق الأبـواب ...لافتـات مكتوبة بخط أحمر كبير :

أنــا

الغــول

لا يسألنّني أحد عمّا فعلت... لماذا فعلته...

ولا ينتظرنّ أحــد منكم أن أعلن توبتي.

أنا الغوووووووووووووووووووول .

أعدكم أنّي سأشرب من دمكم.

وأنّي سأفســــــد أنسكم

ولا تسألوني لماذا...

ازداد الغضب.

وازداد الحذر.

وبـات أهـل المدينـة حريصـين علـى الـتخلّص مـن الغول أكثر من أيّ وقت مضى.

تعقّبوه وطاردوه.

ورصدت لكلّ من يدلّ عليه أو يقبض عليه حيّا أو نصف حيّ أو ميّت مكافأة عالية... ولكنّ الغول ظلّ يضرب دون هوادة... يشرب من دماء الخلق ويستولي على ما بحوزتهم... يقتل ويذبح ويسيل الدّماء... يجرح ويكسّر ويخطف ويوزّع من حين إلى حين لافتات حمراء جديدة مذكّرا بأنّه الغول وأنّه سيظلّ جاثما فوق رقاب الخلق إلى أجل غير مسمّى.

منذ أيّام بدأ النّاس يتداولون أخبارا أخرى.

تداولوا ما يفيد أنّ جماعة من الحرّاس أصابوا ذراع الغول فهلّل الخلق استبشارا وتشفّيا وتنافست بعد ذلك برامج التّلفزات أسبوعا كاملا في عرض الذّراع المبتورة وفي الحديث عن تفاصيل قطع تلك الذّراع والحصول عليها.

تناقصت ضربات الغول ولكنّها ظلّت توجع أهل المدينة من حين إلى حين ففهم النّاس أنّه ما يزال متعطّشا لدمهم وأنّ المعركة ستمتدّ طويلا.

ثمّ تداول النّاس بعد زمن أنّ رصاصة صوّبها أحد الحرّاس إلى الغول أصابت عينه ففقأتها وأردته بعين واحدة فزاد الفرح وتناقص الهلع وتنافس المصوّرون والفنّانون التّشكيليّون في رسم الغول الجديد... غول بذراع واحدة وبعين مفقوءة.

وخاف النّاس أن تنبت للغول ذراع جديدة مكان التي قُطعت وعين أخرى بدل التي خرّبها الرّصاص فتضاعف بحثهم عنه وضيّقوا عليه الخناق في الطّرقات والغابات والجبال والدّيار إلى أن أصبحت المدينة ذات صباح على زغاريد سرعان ما انتشرت في كلّ ثنايا المدينة وسرعان ما وصل صداها إلى المدن المجاورة... زغاريد قالت إنّ مجموعة من الحرّاس نصبوا للغول كمينا فأوقعوه.

استعادت المدينة ألقها

وبدأت الغابات تستعيد خضرتها.

ونبتت في كلّ بقعة سال فيها دم مغدور وردة حمراء.

فـهـرس الـكــتاب

1	بنت الحرام	6
2	ذراع الكلب	20
3	لن أعيش بعده	34
4	الرّجل الذي آواه البيطريّ	44
5	ذلك الحلم	54
6	طالبتي التي تشبهني	64
7	إحتمالات	78
8	"آدم" و "صابرة"	88
9	ذات سفر	104
10	نسائيّات	119
11	اسمعيني جيّدا	132
12	شكرا آنستي	141
13	حلاق الشعب	152
14	الغول	168
	الفهرس	178

salehymabrouki@gmail.com